

اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف
أحمد سويلم
فى شبابهم
صنعوا التاريخ
دار المعارف

الشباب فى حاجة دائمة إلى التمثل بالقدوة .. وهذا الكتاب يقدم نماذج تاريخية ثائرة فى مرحلة شبابها .. صنعت تاريخا مشرفا لأوطانها بل للإنسانية كلها.

وسوف يجد القارئُ القائدَ الشابَ الثائرَ.. والمفكرَ.. والعالمَ.. والفنانَ.. والمبدعَ.. وغيرهم من الذين أفنوا شبابهم فى العمل والنضال.. فأضافوا إلى صفحات التاريخ صفحات أخرى تظل خالدة على مدى الأيام.







سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٧٥٥]

رئيس التحرير

إسماعيل منتصر

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع النظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ -- E-mail: maaref@idsc.net.eg

أحمد سويلم

فى شبابهم صنعوا التاريخ



دار المعارف

اقرأ

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين

دار المعارف

أحلام شهرزاد - العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

الإهـــــداء

إلى شباب ٢٥ يناير ٢٠١١

أحمد سويلم

أما قبل

يقول الشاعر العربى الكبير أبو العتاهية:

بكيتُ على الشباب بدمع عينى
فلم يُغْنِ البكاء ولا النحيبُ

فيا أسفا أسفت على شباب
نعاه الشيبُ والرأسُ الخضيبُ

عريتُ من الشباب وكان غصنا
كما يعرى من الورق القضيبُ

فياليت الشباب يعود يوما
فأخبره بما فعل المشيبُ

والمعنى أن الإنسان فى مرحلة الشباب يمتلك طاقات الحلم والعمل والفعل والنشاط والإنجاز والتفكير والتفوق...

وهى طاقات تبلغ فى هذه المرحلة ذروتها.. حتى إذا امتدت هذه المرحلة فقد تتطور إلى حكمة الشيوخ.. أو تنحدر إلى الخرف والعجز..

وعبقرية الإنسان تكمن فى قدرته على إخراج هذه الطاقات فى صورة فعل وعطاء.. وإضافة إلى حياته وحياة الآخرين..

والتاريخ الإنسانى حافل بتلك النماذج من البشر الذين نبغوا صغارا فصاروا قادة.. وحكماء.. وفنانين.. ومبدعين.. وعلماء.. وسجلوا فى

صفحات التاريخ إنجازاتهم فى مجالات الحياة المختلفة.. وقد يرحلون عن الدنيا حينما يُفرغون هذه الطاقات.. أو يعمرون ويصبحون رموزا تعيش في وجدان الإنسانية بما قدموا فى شبابهم من إنجازات..

ومهما حاولنا أن نقدم من هذه النماذج.. فلن نستطيع أن نحيط بها جميعًا ولا يمكن لقدرة بشرية أن تفعل ذلك.. لهذا.. حرصنا - أيها القارىء الكريم - على اختيار طائفة منوعة من هؤلاء الذين أسهموا فى صناعة التاريخ وهم فى مرحلة الشباب.. مرحلة العطاء والفعل..

فتجد مثلا القائد العسكرى الفاتح المغامر.. والزعيم الوطنى صاحب القضية.. والعالم المكتشف العبقرى.. والفنان الذى أحدث نقلة فنية فى عالم الفن.. والكاتب السباق إلى وجدان القارئ.. والرحالة المغامر فى العالم المجهول.. والمصلح الدينى.. ورائد الفضاء الذى رأى الأرض من السماء.. والنحّات الشهير.. وغيرهم من الشخصيات التى قدمت الكثير إلى تاريخ البشرية.

كما حرصنا أن نطوف فى عالم الشخصيات العربية والأجنبية.. وأخرى موغلة فى القدم.. أو حديثة العهد.. كما قدمنا نماذج للمرأة فى مجالات مختلفة.. ورتبنا الشخصيات تاريخيا..

ونحن هنا لا نقصد أن نقدم سيرة الشخصية بالمعنى المألوف.. لكننا استجابة لفكرة هذا الكتاب.. نلقى الضوء على مرحلة الشباب بصفة أساسية وما جرى فيها من أحداث وإنجازات.. ثم نمر مرور الكرام على السنوات الباقية من حياة الشخصية.

هــى إذن وجبة ثقافية قصدنا أن نقدمها لشــباب اليــوم الذى فجر ثــورة ٢٥ ينايــر ٢٠١١ - لنؤكد لهــم أنهم ورثة هــؤلاء الذين صنعوا التاريــخ.. ومهدوا لهم هذا الدرب الشــائك الذى يــذوب تحت الأقدام المخلصة الفانية.. التى عزمت على تغيير الواقع الردىء..

إن مــا أنجزه شــباب ٢٥ يناير فــى مصر قد التف حوله الشــعب المصرى بكل طوائفه.. وهو عمل معجز حقا.. وجدير بهم أن يتواصلوا بثورتهــم وقدراتهم مع هؤلاء الذين ســبقوهم إلى دخــول التاريخ من أوسع أبوابه..

إننا نقدم هذه الشــخصيات من خلال مرحلة شــبابهم لعلها تضيف رؤى جديدة للأجيال القادمة التى تحتاج إلى القدوة والنموذج..

والله الموفق

أحمد سويلم

يونيه ٢٠١١

أحمس الأول..قاهر الهكسوس

لماذا أنزل الله بنا نقمته..؟

بهذه الكلمات بدأ المؤرخ مانيوتون روايته عن الغزاة الآسيويين الذيـن اقتحموا مصر وحكموها من نهاية القرن ٨ ق.م.. والذين عرفهم التاريخ باسم الهكسوس..

وقد تعرض العالم القديم منذ القرن ٢٠ ق.م لهجرات متعددة.. قامت بها قبائل جبلية غير متمدنة تسكن آسيا الوسطى.. اتجه بعضها نحو الجنوب والغرب بحثا عن مناطق الخضرة والخير..

ومن هذه الهجرات.. هجرة (الرعاة) أو (أمراء المناطق الجبلية) التى وصلت إلى مناطق سوريا وفلسطين.. وحينما استقرت بعض الوقت طمعت فى الاستمرار والتحرك نحو مصر التى كانت تعانى التفكك والاضمحلال فى عصر الأسرة الثالثة عشرة.. فدخلت هذه الهجرات منطقة الدلتا عام ١٧١٠ ق.م واستقرت ومدت سلطانها على البلاد حتى أسيوط جنوبا.. وبهذا دانت مصر كلها لسطوة هؤلاء الرعاة أو الهكسوس..

ويعد احتلال الهكسوس لمصر أول إذلال عرفه تاريخها.. فقد كانوا يزعمون أنهم من طبقات عليا عن سكان مصر.. وأنهم أرقى حضارة

وأسمى مكانة.. مما جعل المصريين طوال أكثر من قرن من الزمان يحاولون التخلص منهم ومن هذا الكبرياء المفتعل الذى عاملوا به الشعب المصرى..

وأطلق المصريون على الهكسوس أسماء مختلفة تدل على الكراهية والبغض من ذلك (الطاعون) أو (الوباء) تماما كما كان الأوربيون يسمون المغول (الخطر الأصفر) أو (الوباء الأصفر).

وقد مهد لغزو الهكسوس تلك الفوضى التى كانت تسود الحياة المصرية واختلاف الحكام.. أو كما يقول الشاعر:

وإذا فرّق الرعاة اختلاف   علّموا هارب الذئاب التجرّى

لقد تجرأ الهكسوس على مصر حينما شاعت فيها الفرقة الداخلية.. فلم يجدوا صعوبة فى الدخول إليها..

لكن المصريين أفاقوا على واقعهم المرير.. فبدأوا ينظمون صفوفهم.. ويدفعون الأذى عن أنفسهم.. ويسعون لتخليص وطنهم من الذل والعبودية.. واستعان بطلهم (سقنن رع) بأوليائه من بيوت الصعيد.. وكانت شريكته وزوجته (الملكة إياح حوتب) تقف إلى جانبه فى هذا المشهد النضالى.

أعلن (سقنن رع) التعبئة العامة.. فتسابق المصريون فى تيار الجندية تسوقهم نزعات الكفاح الوطنى..

وتقوم معارك متنوعة بين سقنن رع والهكسوس.. يقتل فيها سقنن رع بطعنات ثلاث فى فكه الأيسر بعد أن بدأ حركة النضال ضد هذا العدو الظالم..

ثم تــولى ولده (كاموس) لــواء الثورة بعد أبيه.. فوجد الهكســوس يزيــدون من نفوذهم.. ويهددون ملك مصر فى الشــمال.. وهاهو يجمع رجال بلاطه وأمراء جنده لبحث هذا الأمر.. ويقول لهم:

(وددت لــو أعرف ماذا تجدى شــجاعتى وأنا أرى عدوى يجلس فى ديارى ويقاسمنى ملكى..)

ويرد عليه بعض المنافقين بأن الهكسوس لا يؤذون سلطانه.. فالبلاد مازالت آمنة.. ومازال الرخاء سائدا فى البلاد.. لأن العدو يحتل شمال البلاد أى أنه بعيد عنهم..

لكن الملك ضاق بهذا القول وســخط على رأى رجاله.. وكره فيهم هذا الضعف.. وأقسم بالخروج إلى القتال..

أخذ كاموس يجمع جيوشــه من خيرة أبناء الصعيد كما فعل والده.. وناصرته أمه الملكة أيضا.. وأخذ طريقه نحو الشمال وأخذ يخلص بعض المدن من سطوة الهكسوس.. لكنه أيضا لم يكتب له الاستمرار.. فعاد إلى الجنوب حينما رأى خطر النوبيين يهدد مصر.. مما جعل الهكســوس يعيدون الاستيلاء على بعض المناطق المحررة مرة أخرى..

وينتهــى عهد كاموس ليخلفه أخوه الأصغر أحمس أو (أحموســى) الأول.. وكأن القدر أراد أن يقسم النصر بين الأب وولديه.. ويجعل على أيدى أصغر ابنيه النصر المؤزر على الهكسوس..

تســلم أحمس زمام الحرب بعــد أخيه.. ووقفت أمــه بجانبه أيضا تشــد من أزره.. فأخذ أحمس يطارد الهكسوس فى الصحراء الشرقية..

حتى تحصنوا عند حصن فى جنوب فلسطين يسمى (شاروهين).. فضيق أحمس عليهم الحصار ثلاثة أعوام كاملة حتى اضطروا إلى الجلاء عن الحصن.. ثم طردهم حتى أخرجهم تماما من المملكة المصرية..

ويعود أحمس إلى العاصمة بالنصر على الهكسوس وكان ذلك عام ١٥٨٠ ق.م بعد أكثر من قرن من الزمان..

ويذكر التاريخ أن أحمس قد ارتقى العرش وهو صغير السن وقامت أمه خلال حكمه بنوع من الوصاية عليه.. وحينما بلغ العشرين من عمره شرع فى إنجاز الإصلاحات الهائلة التى كانت مصر فى حاجة إليها كما فتحت المناجم والمحاجر من جديد فى أسيوط وسيناء.. وتركزت أوجه الأنشطة المعمارية فى مصر العليا.. وأسس بذلك الأسرة الثامنة عشرة..

ولقد صورت التقاليد المصرية الوطنية الهكسوس فى صورة البرابرة القساة الذين لا يعرف لهم دين ولا عقيدة.. ومن ثم كانوا يحرقون المدن.. ويهدمون المعابد.. ويقتلون الأبرياء.

وحينما تخلص المصريون من الهكسوس.. أقاموا الزينات والاحتفالات بهذا النصر.. وأقبلوا على الشاب أحمس يخلعون عليه صفات البطولة والتقديس والإعجاب..

بل أقام المصريون تخليدا له ولأمه العظيمة نصبا تذكاريا فى ديار آمون بالكرنك يتمثل فى لوح حجرى يصور ما قام به من أعمال الإصلاح فى هذا الوادى..

ويذكر هذا اللوح على لسـان أحمس كيف أن الإله آمون صاحب مصر قد أعطاه ميراثه فجعل سلطانه على جميع الطبقات فى هذا الوادى ومن وراءه فـى جزائر البحر الأبيض.. ثم يتحدث عـن أمه (إياح حوتب) ودورهـا الذى بذلته فى إذكاء روح النضال بين الجماهير.. وكيف أنها رعت أحمس حتى صار شابا فتيا قادرا على القتال..

ولم يكن أحمس بطلا من أبطال الحرب فحسب.. لكنه أيضا كان بطلا من أبطال السلام والتعمير والإصلاح..

والحقيقـة أن الشـاب أحمس كانـت لديه خطة لتحريـر وطنه من كل شـىء يقيد حريته.. وهاهو بعد القضاء على الهكسـوس يلتفت إلى الإصلاح ويعلن إنهاء عصر الإقطاع تماما..

بل إنه استخدم أسارى الحرب فى بناء وطنه.. خاصة أعمال الترميم وقطع الصخور من محاجر الوادى وحملها إلى أماكن البناء والعمل..

ومـن مظاهر النهضـة الجديدة فى عصر أحمـس أن الألقاب المدنية قد كثرت بشكل ملحوظ.. وحملها الكثيرون من عامة الشعب.. فاستطاعوا أن يشقوا طريقهم فى الحياة.. فبلغ منهم مناصب القضاء والحكم..

وحين اتسعت رقعة البلاد.. وامتدت حدودها.. أخذ الفرعون الفتى فـى تنظيم الأمور الإدارية والاقتصادية فازدادت ثروات البلاد.. وقلت البطالة.. وأعلنت طيبة عاصمة للدولة..

وكان من نتائج حروب المصريين ضد الهكسوس أن عرفوا ذلك السلاح الجديد من أسلحة الحرب وهو العجلات التى تجرها الخيول ويعلوها

الفرسان وتطوى الأرض بيسر وسهولة.. فازدادت بذلك الوظائف الحربية.. وجعلت للحرب إدارة خاصة.. ولها مصانعها الخاصة وأحواضها التى تبنى فيها السفن..

لقد كان انتصار أحمس على الهكسوس فاتحة لوضع أساس لإمبراطورية مصرية قوية امتدت فى عصور خلفائه فيما بين أعالى الفرات فى الشمال والشلال الرابع فى الجنوب..

ومن ثم استطاع الفتى أحمس الأول أن يصنع لمصر تاريخًا جديدًا حافلا بالانتصارات والتعمير..



أخناتون.. وعقيدة التوحيد

في قصـــر فرعــون مصــر - أمنحوتب الثالــث - أقيمــت الزينات والاحتفالات بقدوم مولود جديد للفرعون من أمه (الملكة تى).. أطلق عليه أمنحوتب الرابع - وهو الصبى الثانى بعد أخيه (تحوتمس) الــذى مات صغيرا ولم يســتمتع بحياتــه.. كان قصر الفرعــون يتميز بالترف والمجون.. وقد اعتلت صحــة أمنحوتب الثالث نتيجة حياته الفاسدة التى عاشها فى حريمه الصاخب.. ومن ثم أخذ المرض يفتك به زمنًا طويلًا..

كان مولــد (أمنحوتب الرابع) فى عــام ١٣٨٢ ق.م لكن حياته كلها بلغت ثمانية وعشرين عامًا فقط.. فقد ولد طفلًا هزيلًا ضعيفًا.. تراكمت عليه الأمــراض.. ولازمته طوال حياته.. وربمــا ورث جانبًا منها من أبيــه.. بل كان تكوين جســمه غريبًا.. فوجهــه كان نحيفًا إلى درجة الهزال.. طويلًا برزت عظامه.. وتدلت ذقنه.. واتســعت مقلتا عينيه.. وارتســمت على شفتيه الغليظتين ابتســامة خفيفة تدل على طيبة قلب ومحبة للســلام.. ثم هاهو يحمل رأسًا كبيرًا وعنقًا طويلًا.. فوق كتفين منحدرين.. وتميز جسمه ببطن كبيرة متهدلة.. لا تتناسب مع جسده.. أما ساقاه فكانتا رقيقتين بشكل ملحوظ..

لم يجرؤ أحد أن يسخر منه لأنه كان أميرًا ووليًا للعهد.. وإذا كانت هذه الصفات المادية غريبة وشاذة.. فقد منحه الله ذكاءًا شديدًا ورأيًا سديدًا.. وتفكيرًا متوازنًا.. وعقلًا راجحًا.. وكان يحب الصدق ويمقت الكذب وسمى نفسه (العائش على الماعت) والماعث هو الحق والصدق والعدالة..

ولم يكد يشب الفتى قليلًا حتى استدعاه أبوه ليشركه فى الحكم ويدربه على اتخاذ القرار.. فهو ولى العهد القادم بلا منازع..

كان الفتى أمنحوتب الرابع مختلفًا فى سلوكه وفكره عن أبيه.. وكان كثيرا ما يلجأ إلى اعتزال البشر متأملًا فى الكون والحياة..

لقد رصد ساحة العقيدة المصرية فوجد الآلهة المتعددة.. إلهًا للأحياء وآخر للموتى.. وثالثا يجمع بين إلهين.. ورابعا للشمال.. وخامسا للجنوب ثم هاهى الآلهة تتعدد أشكالها ورموزها من الشمس إلى الحيوان إلى الإنسان نفسه..

وكان هاتفًا مقدسًا دعاه إلى توحيد الآلهة فى إله واحد يجمع كل هذه الآلهة..

هى فكرة خطيرة صعبة المنال فى مجتمع يعيش على عقيدة أوزوريس ذلك الإله الملك سيد الآلهة جميعًا.. الذى ودع الدنيا صريعًا.. فعطفت عليه القلوب وهوت إليه الأفئدة.. وانطوت على مأساته الرائعة الضمائر والصدور..

ثم هناك كهان آمون الذين يسيطرون على البشر.. ويتقاضون إتاواتهم من معابده..

وهذا الإله رع الذى يندمج أحيانا فى آمون ليكون آمون رع..
وغير ذلك من الآلهة التى كان لكل منها كهانه وأتباعه وإتاواته..
ماذا يفعل الفتى أمام هذه اللوحة العقائدية الخطيرة.. إنه مازال أميرًا ووليًا للعهد.. ولا يمكنه أن يصرح بما يعتقده فى وجود أبيه.. فلينتظر حتى تحين الفرصة ويصير هو الحاكم والفرعون..
ويموت أبوه بعلله الكثيرة.. ويتوج أمنحوتب الرابع حاكمًا وتتولى أمه (تى) معاونته فى حكمه فى البداية..
لم يكد الفتى يمسك بخيوط الحكم حتى أعلن عن عقيدته الجديدة وإلهه (آتون) الذى يجمع بين الآلهة كلها فى صورة قرص الشمس.. وهو لا يعنى الشمس نفسها وإنما يعنى هذه القوة الكامنة فيها..
ولأن اسمه (أمنحوتب) ينتمى إلى الإله (آمون) بدل اسمه ليكون (أخناتون) لينتسب إلى إلهه آتون.. ومعناه المطيع والمفيد للإله آتون..
ويفاجأ الكهنة بهذا التغيير وبهذا الرب القادم الجديد.. وتبدأ الحرب بينه وبين أتباع الآلهة الأخرى..
أعلن إخناتون إلهه الواحد الذى لا مثيل له.. وصوره بهيئة قرص الشمس يرسل أشعته على الكون ممتدة بأيد بشرية فتفيض على الخلق بالوجود والعافية..
ولم تتح لدعوته أن تكون سلمية.. بل اقترنت بأعمال العنف والقسوة.. إذ ارتطمت دعوته بآمون وكهنته حيث كانوا فى معبد الكرنك بطيبة وكان يدين لهم شعب كبير ممتد من أعالى الفرات إلى أقاصى السودان..

ويخاطب أخناتون البسطاء والفقراء من شعبه فيلتف حوله الكثيرون ويعلن أنه ليس إلهًا ولا حتى نصف إله كغيره من الفراعنة.. لكنه بشر يدعو إلى إله.. وأنه يعيش على الحق والحقيقة ويكره الزيف والكذب ويبدو ذلك فى صورته الجسدية الصادقة المملوءة بالعيوب والتى رفض تصويره فيها بغير الحقيقة..

ويهرب أخناتون من وجه الكهنة ويقيم مدينته المقدسة (أخيتاتون) أو (تل العمارنة) لتكون عاصمة له ولإلهه.. وهى تعنى (أفق آتون)..

ويتصاعد الصراع بين أخناتون والكهنة.. ويستمر اثنى عشرة سنة أخرى حتى انتهاء حكمه عام ١٣٨٢ ق.م واختفائه من الساحة..

وهو صراع مثل صراع الأنبياء.. من أجل نشر العقيدة.. عقيدة التوحيد ومن ثم فقد لاقى العنت والاضطهاد وهو لا يزال شابًا يؤمن بعقيدته ويناضل من أجلها.. ويرسم طريق الهداية للناس من حوله..

ويضع أخناتون أفكاره ورسالته فى أناشيده التى عرفت بأناشيد آتون والتى جاء فيها:

يارب الأرباب.. يا من تشرق فى الآفاق جميلا
فتملأ الأرض بنورك.. يا أول ما عاش وما كان
يا أجمل.. يا أقوى.. يا أغلى.. يا من تسبح فى الآفاق بعيدًا
تدرك فى الأرض نهايتها.. تغمرها نورًا وبهاءً
يا آتون الحى..
أنت الظاهر والباطن..

يا من فى عليائك تحنو بالحب على مخلوقاتك
فإذا غبت مساء فى غرب الأرض
أظلمت الدنيا وتلاشى النور.. وخاف القلب
وانطلقت كل دواب الأرض.. تبثّ أذاها فى الخلق
فإذا أشرقت صباحا فى شرق الأرض
فرّ الليل.. وعاد النور
وسعينا فى أضوائك يا محبوبى
حمدا وصلاة.. وسرورا
وامتلأت أرضك بالخضرة والنضرة والحب
يا آتون الحى..
ثم يقول النشيد:
أبدعت الكون جميعًا.. ونفخت الروح بكل جنين
فإذا خرج إلى الدنيا.. سبح باسمك
ما أكثر ما تخلق يا محبوبى
أنت العالم وحدك لا غيرك
أنت الخالق وحدك.. لا غيرك
أنت خلقت الأرض كما تهوى.. وحدك
وخلقت بها ما يسعى.. ما يزحف.. ما يضرب فى الآفاق
لك كل البشر.. وكل الحيوان.. وكل الطير
لك هذا الوادى.. والشام وأثيوبيا وفلسطين

يا أبهى من يشرق يا محبوبى
يا أكـرم من يعطى يا محبوبى
يا أقرب من يحنو يا محبوبى
يا أعظم من يـبـدع يا محبوبى
يا آتون الحى..

ويوازن كثير من المؤرخين بين فقرات من أنشودة آتون وفقرات أخرى من مزامير داوود خاصة المزمور ١٠٤ من العهد القديم.. ونجد تشـابها شـديدًا بين الجانبين مما يؤكد أن النشـيد هو أصل المزمور.. وهذا يدل على فطرة العقيدة الإلهية فى نفس الإنسان.

وقـد ظل أخناتـون يدعو إلى إلهـه نحو ثمانية عشـر عامًا.. متحملاً كل الأذى والصـراع من جانب الكهنة الذين ألبوا عليه شـعوب المنطقة وأشاعوا عنه شائعات تمس خلقه ووطنيته..

وربمـا كان انحياز أخناتون لدعوته هذه جعله لا يلتفت إلى الأحوال السياسـية فى البلاد التى يحكمها.. مما حرض أعداءه على الاستجابة للكهنة الذين خافوا على سـلطتهم بين النـاس فلعبوا دورًا متأخرًا فى الإطاحة بأخناتون..

وبالفعل انتهى عصر أخناتون.. وغاب أخناتون عن المسرح السياسى بصـورة غامضة.. بعد أن غـير وجه العقيدة المصريـة وزلزل كيانًا ظل يحكم الديانة المصرية زمنًا طويلاً..

وبعيدًا عن ابتعاد أخناتون عن أمور الحكم وانحيازه إلى إلهه آتون.. فـإن قيمة هـذا الرجل قد لفتت العـالم القديم إلى فكـرة التوحيد هذه

الفكرة التى تجلت فى الأديان السماوية فيما بعد مؤكدة أن الإنسان على فطرته كائن متدين موحد بالخالق العظيم..

ينتهــى عصر أخناتون ويرحل هو عن عالمنا فى الثامنة والعشــرين من عمره.. وقد أفرغ طاقة شــبابه فيما ينفــع الناس.. وما يصنع لهم التاريخ المجيد..



الإسكندر الأكبر.. إمبراطور العالم

بلغ الفتى الثانية عشرة من عمره.. وفاق أقرانه في الفروسية.. وتمنى أن يكون مثل أبيه (فيليب) الذى كان قائدًا مقدونيًا عظيمًا..

إنه الإسكندر الأكبر الذى غزا العالم في شبابه.. وسجل تاريخه سلسلة من الفتوحات والانتصارات الكبيرة..

وكان الإسكندر في طفولته يتصرف كأنه أمير.. يعتنى بمظهره.. ويخرج إلى الصيد.. ويلعب ألعاب الأمراء.. ويحضر الاحتفالات التى يقيمها أبوه فيجلس في جواره.. ويشارك الكبار في كل شيء..

وكان يتمتع بمواهب كثيرة.. ومميزات شخصية متفردة..

ويحكى أنه كان رفيقًا رحيمًا بالحيوان.. أحب الكلاب والخيل.. وتفهم كثيرًا من أحوالها النفسية المتقلبة.

وفي أحد الأيام اشترى أبوه (فيليب) حصانًا أسود جميلًا أطلق عليه (بوسيفالوس).. وحينما رآه الإسكندر أعجب به كثيرًا.. وتمنى لو يركبه..

صارح الإسكندر أباه بهذه الأمنية في وجود سائس الحصان.. الذى بدا متجهمًا.. فسأله الملك (فيليب):

- لماذا أنت متجهم هكذا.. أهناك عيب في هذا الحصان لا نعرفه؟

أجاب السائس:

- إنه حصان أصيل حقًا يا سيدى.. ويطلق عليه (رأس الفحل) وطبيعته

كاسمه تمامًا.. فهو وحش فى مظهر لطيف.. لكنى الوحيد الذى يسيطر عليه لأنه ولد على يدىّ.. أما إذا ركبه أحد غيرى فإنه يصبح شرسًـــا.. وضرْبه بالسوط يزيده شراسة وتوحشًا.. قال الملك متعجبًا:

– أليس فى رجالى من يستطيع أن يركبه ويتحكم فيه؟

قال السائس: لا أظن ذلك يا سيدى..

لكن الملك استدعى مدربى الخيول وأشجع الفرسان العارفين بأسرار الخيــل وأخذ كل منهم يجرب حظه مع (بوســيفالوس) رأس الفحل.. لكنهم فشلوا جميعًا فى السيطرة عليه..

أما الإسكندر فقد كان يتابع ما يحدث.. ويراقب حركات الحصان مع هؤلاء الرجال.. وفجأة تقدم إلى أبيه وقال:

– دعنى أحاول يا أبت..

قال فيليب منزعجا: لا يا ولدى.. لا أستطيع أن أراك تعرض حياتك للخطر مع هذا الحصان الشــرس.. لقد أخفق الجميع.. وهم على دراية أكثر منك بأمور الخيول..

لكــن الفتى أصر على التجربـــة.. وظل يلح على أبيه الملك حتى سمح له رغما عنه..

وتقدم الإســكندر إلى حيث يقف الحصان.. وقــد أخذ يخبط الأرض بحوافره وكأنه يتوعد أى إنسان يقترب منه..

لاحظ الإســكندر أن الحصان يحاول جاهدًا الابتعاد عن ظله.. حيث كانت الشــمس قوية.. فقد ظهر ظله الأســود أمامــه وكأنه حصان آخر يرفس ويثب على قدميه..

ويقترب الإسكندر من أذن الحصان هامسًا:

- تعال يا صديقي.. فليس هناك ما يخيفك..

أدار الإسكندر بلطف رأس الحصان باتجاه الشمس بحيث لا يمكنه أن يرى ظله الممتد وراءه.. ثم قفز بخفة فوق ظهره..

ارتعد الحصان.. لكن الإسكندر ربت على ظهره فى هدوء حتى استسلم الحصان له تمامًا.. وبدأ الفتى يتحكم فيه بخبرته فى الفروسية.. وينطلق به كما يشاء.. وتعجب الجميع من قدرة الإسكندر..

عندئذ هتف الإسكندر:

- إنه حصان أصيل يستحق المعاناة يا أبت.. إنه ملك الخيول..

قال له أبوه: هو لك من الآن يا ولدى..

ويصاحب الحصان سيده ستة عشر عامًا فى معظم معاركه التى خاضها.. بل إن الإسكندر أطلق اسم الحصان على مدينة لا تزال آثارها قائمة حتى اليوم فى كشمير.. وقد مات الحصان على إثر جراحه فى معركة مع أحد ملوك الهند فى البنجاب..

هذا هو الفتى الإسكندر الأكبر الذى مارس الفروسية صغيرًا.. وتطلع إلى امتلاك العالم.. وكان نموذجًا للشاب الذى صنع التاريخ..

وقد ولد الإسكندر الأكبر - أو الإسكندر المقدونى - فى ٢١ يوليو ٣٥٦ ق . م وتوفى فى ١٣ يونية ٣٢٣ ق.م.. أى أنه عاش ثلاثة وثلاثين عاما..

أما مسقط رأسه فكان فى (بيلا) العاصمة القديمة لمقدونيا.. وهو ابن الملك فيليب الثانى وابن الأميرة أوليمبياس أميرة إيبيروس..

وكان أرسطو معلمه الخاص.. حيث علمه الفلسفة والأدب والخطابة ولقنه العلوم والطب....

وحينما اغتيل أبوه في عام ٣٣٦ ق.م كان لديه عشرون سنة فاعتلى العرش مكان أبيه.. لكنه اكتشف أنه محاط بالأعداء.. وهدد بالتمرد والعصيان من الخارج.. فلجأ إلى التخلص بسرعة من أعدائه والمتآمرين عليه..

وفي صيف ٣٣٦ ق.م اختاره الكونجرس في كورنيث قائدا للبلاد.. وبدأ الإسكندر على الفور في تنفيذ خطته لحكم العالم.. فبدأ بحملة على الفرس عام ٣٣٥ ق.م وكان جيشه مكون من ٣٥٠٠٠ مقاتل مقدوني وقابل الفرس عند طراودة وكان عددهم نحو ٤٠٠٠٠ مقاتل..

وينجح الإسكندر في سحق الفرس.. ولم يخسر سوى ١١٠ رجال فقط وصار مسيطرًا على كل ولايات آسيا الصغرى.

ثم يتقدم جنوبًا ليواجه جيشًا فارسيًا آخر بقيادة الملك دارا الثالث في شمال شرقي سوريا.. وتدور بينهما معركة (أسوس) الضارية في عام ٣٣٣ قزم انتهت أيضًا بانتصار الإسكندر وجيشه وهزيمة دارا هزيمة منكرة.. حيث فر دارا شمالًا تاركًا أمه وزوجته وأولاده الذين عاملهم الإسكندر معاملة حسنة باعتبارهم ينتسبون إلى أسرة ملكية. ثم يستولى الإسكندر على مناطق سوريا الداخلية وحتى نهر الفرات ثم يتجه جنوبا إلى مدينة صور المحصنة بحريا فيواجه فيها مقاومة شديدة لكنه ينجح في اقتحامها بعد حصار دام سبعة أشهر..

ثم يحتل غزة ويدخل مصر.. ويؤسس مدينة الإسكندرية في المكان الذي كان يسمى (راقودة) وكانت منطقة صغيرة يعيش سكانها على صيد

السمك.. وتروق له مصر.. فيقوم فى ربيع عام ٣٣١ ق.م بالحج إلى معبد آمــون رع - المعروف بزيوس عند اليونان - فنصبه الكهنة فرعونًا على مصر وأحبه المصريون وأعلنوا له الولاء والطاعة.. وصار ابنًا للإله الأكبر ولبس تاج آمون الذى كان على شكل رأس كبش ذى قرنين.. فلقب بذلك بالإسكندر ذى القرنين..

وقد يخلط البعض بينه وبين ذى القرنين المذكور فى القرآن الكريم.. فالإســكندر المقدونى حكم اليونان قبل مقدم المسيح عليه السلام بثلاثة قــرون تقريبًا وكان على الديانة الوثنية.. ومعلمه الفيلســوف أرســطو الــذى كان من ملاحدة الفلاســفة.. أما ذو القرنين فــكان قبل المقدونى بقــرون طويلة وكان - كما يحكى القــرآن - مؤمنًا.. ويظن أنه حكم فى آسيا وأفريقيا.. بل يرى بعض المؤرخين (ابن جرير الطبرى وابن كثير) أنه كان ملكا عربيا..

ونعــود إلى فتوحات الإســكندر حيث حاصر مدينــة بابل.. ومدينة اصطخــر التى أحرقها كاملة.. انتقامًا لما فعله الفرس فى أثينا فى عهد ســابق.. وبهذا سيطر الإسكندر على هذه المناطق الممتدة حتى الشواطئ الجنوبية لبحر الحزر.. وتقدم لغزو الهند.. لكنه ووجه بثورة جنوده ورفضهم الاستمرار فى الغزو..

توقف الإســكندر ليعيد حساباته.. وعاد إلى بابل عام ٣٢٣ ق.م وأقام مدينة الإســكندرية على نهر الفرات.. وأصيب بحمى شديدة مات على أثرها تاركا وراءه إمبراطورية عظيمة مترامية الأطراف..

ويقال إنــه على فراش الموت نطق بجملة غامضـــة بقى أثرها أعوامًا طويلة حيث قال: إلى الأقوى To The Strongest ..

هذا هو الإسكندر الأكبر الذى حلم أن يكون امبراطور العالم.. وحقق حلمه بما يملك من عزيمة الشباب القوية.. لا يهاب الموت.. ولا يخشى الأعداء.. ويعتقد أنه كان ينســعى إلى بناء عالم يقوم على الأخوة بدمجه الشرق مع الغرب فى إمبراطورية واحدة..

□□□

علي بن أبي طالب.. والتضحية من أجل العقيدة

اقترح النبي ﷺ على عمه أبي طالب.. أن يكفل ولده عليا - وكان في السادسة من عمره - فقد كان أبو طالب كثير العيال.. كما أنه كان يتكبد شئون الرياسة في بني هاشم.. فقبل الرجل اقتراح ابن أخيه.. ومن ثم نشأ عليّ في رعاية محمد ﷺ.

وحينما هبط الوحي على الرسول الكريم ﷺ.. كان علي قد بلغ العاشرة من عمره.. فرأى محمدًا ﷺ يصلي.. فسأله: ماذا تفعل؟

فأجابه الرسول ﷺ إني أصلي لله رب العالمين..

سأل الفتى باندهاش: ومن يكون رب العالمين؟

أجاب الرسول ﷺ: إنه الإله الواحد الأحد.. لا شريك له.. له الخلق.. وبيده الأمر.. يحيي ويميت.. وهو على كل شيء قدير..

ثم دعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام فلم يتردد..

وبدأت الرسالة في بيت الرسول ﷺ بخديجة زوجته.. وعلي ابن عمه.. وزيد خادمه.. ولقد أسلموا أولًا بأول..

ومنذ ذلك اليوم وهو مع النبي ﷺ لا يفارقه.. يصلي معه.. ويصغي إليه.. ويسمع الوحي قبل أن يسمعه غيره..

وحينما عوتب علي إسلامه بدون مشورة أبيه أبي طالب أجاب على الفور:

- لقد خلقني الله من غير أن يشـاور أبا طالـب.. فما حاجتي أنا إلى مشاورته لأعبد الله!

وكان يقول: ما أعرف أحدًا من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا غيرى.. عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين..

وحينمـا رأى أبو طالب ولـده يصلى خلف الرسـول ﷺ للمرة الأولى.. لم يضطرب الفتى بل أنهى صلاته وأقبل على أبيه فى عزة وشجاعة وقال:

- يا أبت لقد آمنت بالله وبرسوله ﷺ .. وصدقت ما جاء به واتبعته..

فأجاب أبو طالب: أما إنه لا يدعوك إلا إلى الخير.. فالزمه..

ولم يغب علىّ عـن دار الأرقم بن أبى الأرقم قط.. وطالما تابع الوحى والدعوة بقلبه المؤمن فيحمد الله أنه لم يسجد لصنم.. ولم يدنس وجدانه بعقيدة الأوثان.. بل إنه يدرك كم هو محظوظ لأنه ولد فى رحاب الكعبة بيت الله الحرام..

لم تكـن القرابة إذن هى التى قربته إلى الإسـلام.. فقد ظل كثير من أقرباء الرسول ﷺ على الشرك زمنًا طويلًا.. منهم عقيل بن أبى طالب أخوه.. الذى حارب المسلمين فى بدر وأسلم بعد صلح الحديبية..

ويقيم علىّ مع الرسول ﷺ فى بيته بعد البعثة ثلاثًا وعشرين سنة.. منها ثلاث عشرة سنة بمكة قبل الهجرة مشاركًا للرسول ﷺ فى محنه كلها متحملًا عنه الكثير..

وكان على يفدى النبى ﷺ بنفسـه.. ويطلـب منه أبوه أبو طالب أن ينام فى مرقد محمد ﷺ خوفًا عليه..

ولعـل ما حدث فى ليلة الهجرة يمثل نموذجًا عظيمًا للفداء من أجل العقيدة.. وقصة ذلك تروى فى كل كتب السـيرة.. وملخصها أن قريشًا حينما أعيتها الحيل فـى القضاء على دعوة الإسـلام.. اجتمعت بدار الندوة مع قبائل العرب.. وقرر الجميع قتل محمد ﷺ.. ولكى يُعجزوا بنى هاشم عن المطالبة بدمه.. اتفقوا على أن يختار كل بطن من بطونهم فتى شـديد البأس على أن يتولى هؤلاء الفتيـان جميعًا قتل محمد ﷺ فيتوزع دمه ﷺ بين القبائل كلها..

وفى الليلة التى عينـت لتنفيذ هذه المهمة.. أعلم الله نبيه بها.. فأخذ الرسول ﷺ ابن عمه عليًا.. وطلب إليه أن يرتدى لباسه.. وينام فى فراشه ليوهم المتآمرين أنه - أى النبى ﷺ - فى داره وفى فراشـه كعادته.. ثم انصرف النبى ﷺ مهاجرًا من مكة إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق..

أمـا الفتيان المتآمرون.. فظلوا يتطلعـون من خلال الباب فيرون عليًا نائمًا فيظنون أنه محمد.. فيطمئنون..

ورأوا من الحكمة أن يبدءوا خطتهم فى الهزيع الأخير من الليل.

وبينمـا هـم على هذه الحـال من التربـص والانتظـار.. جاءهم من يخبرهـم بأن محمدًا غادر الدار وهم غافلـون.. فلم يصدقوا.. واقتحموا البيـت ليجدوا عليّا هو النائم فى فراش النبى ﷺ.. فيشـعرون بخيبة الأمل.. ولم يجدوا ما يفرغون به غيظهم سـوى أن يسبوا عليًا ويضربوه ويحبسوه ساعة ثم يطلقوه..

لقد قبل الفتى هذا العمل الفدائى الخطير بنفس مطمئنة.. ودون تردد.. بل كان يشعر بأنه أسعد البشر جميعًا وهو يفتدى محمدًا ﷺ ورسالته العظيمة.

ولولا إيمان علىّ الصادق.. وحبه الخالص لمحمد ﷺ.. وتسليمه لقضاء الله.. لتردد فى قبول هذا العمل الخطير..

وقد آثر الفتيان أن يرجئوا خطتهم لما بعد الهزيع الثانى من الليل.. ولولا أن أحدهم أخبرهم بخروج محمد.. لدخلوا على النائم دون أن يتفحصوه.. وقتلوه..

كل شىء إذن كان فى دائرة الاحتمال.. لكن عليًا لم يحسب لهذه الاحتمالات حسابها.. ولم يكن فى ذهنه أمر سوى فداء الرسول ﷺ فى هذه الليلة..

ويصل الرسول ﷺ وصاحبه إلى المدينة.. أما علىّ فقد هاجر فيما بعد.. وكان قد جاوز العشرين من عمره.. فكان موعده مع تلك المعارك والغزوات التى دعمت أركان الإسلام والمسلمين..

وكان الفتى فى هذه الفترة قد اكتملت بنيته الجسدية.. وبنيته العقلية معًا.. ويصفه ابن عبد البرّ فى كتابه (الاستيعاب جـ ٣) بقوله:

كان علىّ ربعة من الرجال إلى القصر ما هو.. أدعج العينين «شدة سواد العين وشدة بياضها مع اتساعها».. حسن الوجه كأنه القمر ليلة البدر حسنًا.. ضخم البطن.. عريض المنكبين.. شش (ضخم) الكفين.. كأن عنقه

إبريق فضة.. أصلع ليس فى رأسـه شعر إلا خلفه.. كبير اللحية.. لمنكبيه مشاس (رأس العظم) كمشاس السـبع الضارى.. لا يتبين عضده من ساعده فقد أدمجت دمجًا.. إذا مشى تكفأ.. وإذا أمسك بذراع أحد أمسك بنفَسِه فلم يستطع أن يتنفس.. وهو إلى السمن ما هو.. شديد الساعد واليد.. وإذا مشى للحرب هرول.. ثبت الجنان.. قوى شجاع.. منصور على من لاقاه..

وهو وصف - كما نرى - لرجل مكتمل القوى - هياب فى الشـكل.. قوى فى الإقدام.. لا يهاب الموت.. أما فى فتح خيبر.. فقد قال الرسول الكريم ﷺ : لأعطين الراية غدًا لرجل يحب الله ورسـوله.. ويحبه الله ورسوله.. ليس بفرّار.. يفتح الله على يديه..

وقد تحققت نبوءة الرسـول ﷺ منذ اليوم الأول.. ففتح الله الحصن الحصين على أيدى المسلمين.. وعلىّ فى يده الراية..

ويذكر مؤرخو السيرة أن عليا لم يتخلف عن غزوة غزاها النبى ﷺ إلا غزوة تبوك - حيث اسـتخلفه الرسـول فيها على أهله.. وحينما أبدى على رغبته فى الخروج إلى الجهاد.. قال له الرسول ﷺ :

- يا علىّ أنت منى بمنزلة هارون من موسى.. إلا أنه لا نبى بعدى!

هكذا كانت مكانة علىّ منذ طفولته وشـبابه من النبى ﷺ.. فجمع فى شـخصيته بين المقاتـل الصلب المنتصر.. والمؤمن الصـادق.. والفقيه القاضى الذى كان المسلمون يلجئون إليه فى حل مشكلاتهم..

بل كان عمر بن الخطاب يقول عنه: علىّ أقضانا..

ويقول أيضًا: لولا علىّ لهلك عمر..!

وقال عبد الله بن عباس: لقد أعطى علىّ بن أبى طالب تسعة أعشار العلم.. وأيم الله لقد شارككم فى العشر العاشر..

وقال عبد الله بن مسعود: أعلم أهل المدينة بالفرائض علىّ بن أبى طالب.. بل إن عليا نفسه لم ينكر على نفسه هذا العلم الذى كان يراه هبة من الله.. وفى هذا يقول:

- سلونى.. فوالله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم.. وسلونى عن كتاب الله.. فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار.. أم فى سهل أم فى جبل..

ويمضى التاريخ.. ويخلف أبو بكر محمدًا.. ويخلف عمر أبا بكر.. وعثمان عمرا.. فلما قتل عثمان بايع كبار الصحابة عليا بالخلافة (٣٥هـ).. وكان الزبير بن العوام.. وطلحة بن عبد الله فى طليعة المبايعين.. ثم تحللا فيما بعد من هذه البيعة وخرجا مع عائشة من المدينة إلى البصرة يحرضان الناس ضد علىّ.. ويتهمانه بالتراخى فى نصرة عثمان بن عفان.. واستجاب لهما عدد كبير من الناس.. مما اضطر علىّ إلى الزحف إليهما بجيشه وأنصاره.. والتقى الجميع فى معركة (الجمل) وكان النصر لعلىّ وقتل فى هذه المعركة طلحة والزبير..

وكان معاوية أميرًا للشام.. وقد أبى بيعة على واتهمه فى دم عثمان.. ودخلا معا معركة صفين.. وانتصر فيها علىّ.. ولكنها لم تكن المعركة الفاصلة.. فقد لجأ معاوية للحيلة.. فأمر جنوده برفع المصاحف على السيوف والمناداة بتحكيم كتاب الله فى هذه الفتنة القائمة بين المسلمين..

وبالرغـــم من أن عليا فطن إلى هذه المكيدة.. فإن أنصاره خالفوه لأنهم كانوا قد ملوا القتال.. وتطلعوا إلى السلامة..

وانتهى الأمر باختيار أبى موســى الأشــعرى حكمـا من قبل علىّ.. وعمرو بن العاص حكما من قبل معاوية.. وكان داهية شديد الحيلة..

واقترح الأشــعرى أن يخلع كل منهما صاحبه من الخلافة.. ويترك الأمر للمسلمين يختارون من يرونه مستحقًا لها..

ويبدأ أبو موسى فيخلع عليا.. لكن عمرو بن العاص لم يخلع صاحبه بل ثبته فى الخلافة..

وتدور المعارك بين الطرفين فى مشـــهد دموى متواصل.. وخرج على علىّ بعض أنصاره واتهموه فى دينه فســموا الخوارج.. وراحوا يعيثون فسادًا فى الأرض ويفتكون بالنساء والأطفال والشيوخ..

ولقيهم فى موقعـــة (النهروان) فقتلهم.. لكنهـــم كانوا يضمرون له الشـــر.. فانتدبوا من بينهم عبد الرحمن بن ملجم.. وهو رجل متعصب فاتـــك.. فكمن لعلى فى المســجد وانتظر خروجه لصــلاة الفجر وطعنه بالسيف فى رأســه طعنة قاتلة.. (سنة ٤٠ هـ) ليترك لنا علىّ نموذجًا للمناضل فى ســبيل الحق.. ويســجل ذلك فى عدة مؤلفات منها: نهج البلاغة.. والحكم.. وديوان شــعر.. إنها سيرة رجل صنع التاريخ منذ كان طفلا وفتى.. فصارت ذكراه عطرة على مر الأجيال..

□□□

أسامة بن زيد.. الفتى القائد

لم يبلغ الثامنة عشـرة من العمر.. حتى كان ماهرًا فى الفروسية.. مدربًا على فنون الحرب والقتال..

وقبل وفاة النبى ﷺ بعامين بعث أسـامة بن زيد أميرًا على سـرية خرجت للقاء بعض المشـركين الذين يعادون الإسلام والمسلمين.. وكانت تلك هى الإمارة الأولى التى يتولاها الفتى أسامة..

ولابد أن الفتى كان سـعيدًا لهذا الاختيار.. بل أدرك أن عليه واجبًا عظيمًا ثقيلًا.. فليكن على قدر الموقف..

واسـتطاع الفتى مع سريته أن يحرز النجاح والفوز على قوى الشرك بل سبقته أنباء فوزه إلى الرسول الكريم ﷺ.. ففرح بها وسعد..

ويدخل الفتى أسـامة على الرسول ﷺ فى مجلسـه.. ليقدم تقريرًا عـن أحداث هـذه الغـزوة الصغيرة.. فوجـد النبـى ﷺ يرحب به.. ويدنيه منه.. ثم سأله عن تفاصيل ما حدث..

ويبدأ أسامة يحدثه وقلبه يرقص من الفرح والفخر.. ثم قال:

- حينما انهزم المشركون.. رأيت رجلًا منهم يحاول الهرب فأهويت إليه بالرمح.. فوجدته يقول: لا إله إلا الله.. لكننى لم أصدقه بل طعنته وقتلته.. وهنا تغير وجه الرسول ﷺ وصاح:

- ويحك يا أسـامة.. كيف لـك بلا إلـه إلا الله.. ويحك.. ولم يزل

يرددها على أسامة.. حتى إن الفتى تمنى لو أنه انسلخ من كل عمل عمله واستقبل الإسلام من جديد.. ثم أقسم ألا يقاتل بعد ذلك أحدا قال: لا إله إلا الله...

درس عظيم تلقاه الفتى من معلم عظيم.. بقى معه حتى لقى ربه فى أواخر خلافة معاوية بن أبى سفيان..

أما أبوه فهو زيد بن حارثة.. اختطفته صغيرًا إحدى القبائل العربية الجاهلية وباعته فى سوق عكاظ.. ليشتريه حكيم بن حزام ويقدمه هدية إلى عمته خديجة بنت خويلد.. لتهبه هى الأخرىَ إلى زوجها محمد بن عبد الله فيعتقه ويجعله حرًا..

وتتعرف إلى زيد إحدى القبائل فى مكة.. فتنقل ذلك إلى أبيه وتدله على مكانه.. فيسرع الأب إلى حيث يعيش زيد فى بيت الرسول ﷺ ويطلب الأب من الرسول الكريم أن يستعيد ولده..

ويستدعى الرسول ﷺ زيدًا ويخيره بين أن يعود مع أبيه وأن يظل معه.. فيفضل زيد محمدًا ﷺ على أبيه قائلًا له:

- ما أنا بالذى أختار عليك أحدًا.. أنت الأب والعم..

ويعود أبوه من حيث أتى.. ويتبنى الرسول الكريم زيدًا ويزوجه أم أيمن جاريته الحبشية.. ويرزق الزوجان أسامة.. وكان مولده فى السنة السابعة قبل الهجرة (٦١٥م).

لم يكن شكل الفتى الخارجى يؤهله لشىء عظيم.. فهو كما يصفه المؤرخون: أسود أفطس..

ولكن الإســلام لا يعبأ بالشكل الظاهرى.. فقد دخل الرسول ﷺ مكة فاتحًا.. وعن يمينه ويســاره بلال وأســامة.. رجلان أسودان داكنان.. ويحس الطفل أســامة بحنان رب البيت الذى كان يدنيه ويجلســه على فخذه.. ويجلس الحسن بن علىّ على فخذه الأخرى ويقول:

- اللهم إنى أحبهما.. فأحبهما..

ويتعلم أســامة فى مدرسة النبى ﷺ .. وقد وهبه الله ذكاءً وإيمانًا.. وفطرة نقية..

ومرة أرســل النبى ﷺ فى طلبه.. وقلبه يسـبقه.. فتعثر فى عتبة باب الرسول الكريم.. فوقع وشجّ وجهه.. فدعا النبى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وطلب منها أن تعالجه.. لكنها استنكفت ذلك ولم تفعل فأقبل الرسول الكريم على أسامة يمصّ دمه ويعالجه ويقول على مسمع من الجميع:

- لو كان أسامة جاريةً لحلّيتُه حتى ألفّعه (أى أزوجه).

تمتع إذن الفتى بحنان الرســول فى بيته وأمــام الناس ولقب بحبِّ الرســول ويتقدم للمشــاركة فى غــزوة أحد وهو فى الثانية عشــرة من عمره.. فيقول له الرسول الكريم:

- إنك يا ولدى صغير السن لا تقدر على حمل السلاح.

ويلح مرة أخرى فى غزوة الخندق ويبكى ويتوسل.. حتى وافق الرسول على التحاقه بالجيش.. ليكون له شرف الجهاد فى سبيل الله..

وتلقى أسامة الدرس العظيم حينما أرسله فى سرية إلى المشركين..

وفى العام الثامن للهجرة (٦٣٠م) خرج المسلمون إلى غزوة حنين وكان

أسامة واحدا ممن شاركوا فى هذه الغزوة.. وكانت معركة تاريخية بين المسلمين وقبيلتى هوازن وثقيف.. وكان من بين المسلمين العباس بن عبد المطلب.. وأبو سفيان بعد إسلامه.. وتحصنت هوازن بقمم حنين حتى إذا دخل المسلمون الوادى وهم فى خيلائهم بسبب كثرتهم.. انحدر عليهم المشركون وكادوا يفتكون بهم.. وولى كثير من المسلمين الأدبار.. لولا ثبات الرسول ﷺ وبعض أصحابه الذين كانوا عشرة رجال كان منهم أسامة ذلك الفتى الذى لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره..

ويحكى التاريخ الإسلامى صورًا أخرى من جهاد المسلمين فى مواجهة أعداء الدين.. ومن ذلك غزوة مؤتة حيث انطلق المسلمون ليؤدبوا الغساسنة فى الشمال.. وفى لحظة وداعهم يقول لهم رسول الله ﷺ :

-- أمير الناس زيد بن حارثة.. فإن قتل فجعفر بن أبى طالب.. فإن قتل فعبد الله بن رواحة.. فإن قتل فليرتض المسلمون بينهم رجلًا فيجعلوه عليهم..

ويقتل الثلاثة ويولون خالد بن الوليد..وكان أسامة بين جنود هذا الجيش.. ويعود أسامة حزينًا على والده.. ويدخل على الرسول ﷺ قائلًا:

- أبى يا رسول الله..

ويواسيه الرسول ﷺ ويدعو لأبيه بالجنة.. ويحس أسامة أن الرسول يشاركه الفجيعة.. فصبر عليها..

وتمر أيام يقرر فيها الرسول ﷺ إرسال حملة لتأديب الروم والأخذ بثأر المسلمين فى مؤتة.. ويؤمّر أسامة على رأس هذه الحملة..

لكن الرسـول ﷺ يصيبه المرض.. وينتقل إلى الرفيق الأعلى ويوصى بالخروج إلى قتال الروم تحت قيادة الفتى أسامة..

ويتـولى أبو بكر الصديق الخلافة.. ويصر على تنفيذ وصية الرسـول الكريـم ﷺ.. ويعترض بعض الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب محاولا إقناعه بتنحية أسامة..

ويثور أبو بكر ويثب على عمر آخذا بلحيته قائلًا:

- ثكلتك أمك يا ابن الخطاب.. يسـتعمله رسـول الله ﷺ وتأمرنى أن أنزعه.. إن تخطفنى الكلاب والذئاب ولا أرد قضاء قضاه رسول الله ﷺ.

وكان المشهد عجيبًا وكريمًا فى الوقت نفسه.. فهذا الخليفة أبو بكر يشـيع الجيش إلى مشـارف المدينة المنورة.. وعلى رأسـه الفتى أسامة بن زيد فوق جواده.. ويحاول أسـامة أن ينـزل ليركب الخليفة.. لكن أبا بكر كان حازمًا:

- لا تنزل يا أسـامة.. فما علىّ لو أغبرّ قدمى فى سـبيل الله ساعة..

وينطلق الفتى ابن الثامنة عشـرة بجيشـه إلى الشـام فيأخذ بثأر أبيه والمسلمين من الروم.. ويعود بالفوز والنصر الكريم..

ثم يشترك أسـامة فى حروب الردة.. ويزداد حب أبى بكر له ولم يكـن حب عمـر بن الخطاب بأقل مـن أبى بكر لأسـامة.. فقد فرض لأسـامة من الديوان خمسـة آلاف.. على حين أعطى ولده عبد الله بن عمر أربعة آلاف فقط..

وهنا سـأل عبد الله أباه: لقد فضلت علىّ أسـامة.. وقد شـهدت مع رسول الله ما لم يشهد..؟

فأجابه أبوه: إن أسامة كان أحب إلى رسول الله ﷺ منك:
وأبوه كان أحب إلى رسول الله من أبيك..
وكان الجواب شافيًا لكل جراح النفس..
ويعمر أسامة حتى نشبت الفتنة الكبرى بين على ومعاوية.. لكنه كان يقف على الحياد..
كان أسامة يحب عليا كرم الله وجهه.. وكان يرى الحق بجانبه.. ولكن كيف يقتل بسيفه مسلمًا يؤمن بالله ورسوله.. وهو الذى لامه الرسول ﷺ لقتله مشركًا محاربًا فى لحظة انكساره وهروبه حين قال:
- لا إله إلا الله.!؟
ولهذا أرسل أسامة إلى الإمام علىّ رسالة قال فيها:
- يا أخى علىّ..
إنك لو وضعت يدك فى شق الأسد لوضعت أنا رأسى به..!
ولزم أسامة داره طوال هذا النزاع بين الطرفين.. وحينما جاءه بعض أصحابه يناقشونه فى موقفه أعاد عليهم قوله:
- لا أقاتل أحدًا يقول لا إله إلا الله أبدًا..
قال أحدهم له.. ألم يقل الله:
﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾
فأجابهم قائلًا: أولئك هم المشركون.. ولقد قاتلناهم حتى لم تكن فتنة.. وكان الدين كله لله..
وفى العام الرابع والخمسين من الهجرة يرحل أسامة مكرمًا إلى الدار الآخرة.. بعد أن صنع تاريخًا مشرفًا فى شبابه.. وشيخوخته معًا.

البيرونى.. موسوعة العلم والفلسفة

في موسم جمع الحطب.. اعتاد الطفل بعد موت أبيه التاجر.. أن يخرج مع أمه ليجمع الحطب لتبيعه في سوق بيرون..

وفي موسم الربيع.. كان الفتى يخرج ليتأمل الطبيعة من حوله ويرسم الأزهار والنباتات.. ويلاحظ مفردات الطبيعة الجميلة..

وحدث أن التقى في إحدى جولاته مع عالم نبات من اليونان.. رآه يجمع الزهور من البساتين.. ويقطع النباتات ويجمعها.. فاقترب منه وسأله: لماذا تفعل هذا يا سيدى.. وتحرم الزهور والنبات من حياتها؟!

وهنا ابتسم العالم وربت فوق كتف الفتى وقال: إننى أجمعها من أجل العلم يا ولدى.. فمنها نأخذ الأدوية والعقاقير لشفاء الناس من الأمراض.. ويدرك الفتى أنه أمام عالم نبات كبير.. فقال له: أنا أيضًا أحب الزهور والنبات والطبيعة كلها يا سيدى..

لمح العالم في عينى الفتى وهجًا خاصًا وتعطشًا للمعرفة فقال له: أتحب أن تصحبنى أعلمك ما أعلمه من عالم النبات؟

لم يتردد الفتى.. لكن داخله كان يتساءل: كيف تعيش أمى بلا مساعدة؟ وهاهو يخبر العالم بمعاناته.. فيعده العالم أن يدفع له أجرًا يكفيه ويكفى أمه.. ويجلس الفتى في حضرة العالم.. لقد كان يعرف لغتين: العربية.. لغة دينه.. والفارسية لغة قومه.. ويعده العالم بتعلم لغتين

أخريين: اليونانية والسريانية قائلًا له: بهذه اللغات الأربع يا بنى ستعرف علوم المحدثين والأقدمين..

كانت النبوءة صادقة.. فكان العالم العربى الكبير أبو الريحان: محمد بن أحمد البيرونى.. وقد لقبته أمه: أبا الريحان لمطاردته الفراشات وحبه للزهور وعودته كل يوم وفى يده باقة من أعواد الريحان.. يعبق بها البيت..

ولد البيرونى فى عام ٣٦٤ هـ بضاحية جرجان بخوارزم.. ونشأ فى بيئة فارسية وتعلم العربية والفقه.. وسمى بالبيرونى نسبة إلى بلدة بيرون التى أقام بها زمنًا طويلًا..

ولم يكد يبلغ الرابعة عشر من عمره حتى تمكن من اللغتين اليونانية والسريانية على يد عالم النبات.. ثم حنّ إلى العودة إلى بلاده.. فاقترح عليه العالم أن يرافقه ليقدمه إلى عالم الفلك والرياضيات (أبو نصر منصور بن عراق) وكان أحد أمراء الأسرة الخوارزمية المالكة فى مدينة كات.. ويرحب به أبو نصر.. ويدعوه للإقامة بجانبه هو وأمه.. ويجرى عليه راتبا شهريا معقولًا.. ويصير له مربيًا ومعلمًا..

وفى التاسعة عشرة من عمره.. كانت موهبته وقدراته قد اكتملتا.. ففكر فى معرفة الموقع الجغرافى لمدينة كات.. حتى نجح فى تحديده بعد رصد ارتفاع الشمس عن الأرض.. ومعرفة خط العرض.. وقدم نتائجه تلك إلى معلمه فسعد به.. وبدأ يقدمه إلى علماء عصره ليزداد علما ومعرفة فى مجالات الرياضيات والفلك..

تفتحت أمامه مجالات البحث العلمى.. ولم يقصر همته فى دراسة العلوم والتأليف فيها على الفلك والرياضيات والطب.. بل تناول الآداب والتقاويم والتاريخ..

وكان بينه وبين ابن سينا مراسلات ودراسات أثمرت أول كتبه (الآثار الباقية من القرون الخالية)..

وقد ذهب البيرونى فى شبابه إلى الهند وكانت قد دخلت الإسلام وقتذاك بعد انتصار جيوش الغزنوى.. ودرس هناك علوم اليونان.. وأخذ ينهل من ثقافة الهند.. وخرج على الناس بكتابه الكبير فى تاريخ الهند (ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة)

وحين عاد البيرونى من الهند واستقر فى البلاط الغزنوى أهدى إلى السلطان المسعودى رسالة فى علم الفلك وعنوانها (القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم) وفى السنة نفسها كتب رسالة أخرى فى الهندسة والحساب والتنجيم عنوانها (التفهيم لأوائل صناعة التنجيم)

وفى مجال الطب له كتاب (كتاب الصيدلة) - كما ألف كتابا عن الجواهر: (الجماهر فى معرفة الجواهر).. ورسالة أخرى فى المعادن..

وكان البيرونى يتميز بروحه العلمية وتسامحه وإخلاصه للحقيقة.. وفى رأيه أن مطالب الحياة تستلزم إيجاد فلسفة علمية تساعد الإنسان فى تصريف الأمور وتمييز الخير من الشر.. والعدو من الصديق..

ومن رأيه أن العلم اليقينى لا يحصل من إحساسات يؤلف بينها العقل على نمط منطقى.. ويرى فى وحدة الاتجاه العلمى فى العالمين

الإسـلامى والغربى اتحادا للشرق والغرب.. وكأنما كان يدعو إلى وحدة الأصول الإنسانية والعلمية بين الشعوب فى عالم واحد..

ويرحـب به المأمـون أمير خـوارزم.. وكان محبا للعلـم والعلماء.. وعندما أدرك قدرات البيروني العقلية اتخذه مستشـارا سياسـيا له.. وأخذ يعهد إليه بمهام سياسية داخل خوارزم.

واسـتطاع البيرونـى أن يقيم فـى العاصمـة (الجرجانية) حلقة رصد كبيرة أجرى بها خمسـة عشـر رصدًا لارتفاعات الشمس وقت الزوال.. كما رسـم على كـرة قطرها عشـرة أذرع الأقاليم والبحار.. وحـدد خطوط الطـول والعرض.. فكان أول من وضع الرسـم للخرائط على سـطح كرة.. ونقـل البيرونى خلال رحلتـه إلى الهند عددا من الكتب الهندية من اللغة السنسكريتية إلى العربية.. وعددا من الكتب العربية إلى السنسكريتية فحقق بذلك التواصل بين الشعوب الهندية والعربيـة.. كما نقل للعالم الأرقام الحسـابية الغبارية من الهند إلى العرب وهى الأرقام المسـتعملة الآن فى قارات أوروبا وأمريكا وآسـيا وشمالى أفريقيا.. ويعرفونها بالأرقام العربيـة..

يقول البيرونى: إن النجاح والتوفيق موهبة من عند الله غير مكتسـبة بل يختص بها قوما دون قوم.. إن حل الأزمات الاقتصادية لا يكون ماديا بوجه من الوجوه بل هو معنوى محض..

ومن ثم كان تفكيره العلمى يسـبق كثيرا من المفكرين.. حتى صار عالمًا موسوعيًا فى مجالات الحياة المختلفة..

وإنجازات البيرونى كثيرة.. نذكر منها على سبيل المثال:

- عمل قانونا جغرافيا كان أساسًا لأكثر القسموجرافيات الشرقية وقد استند إلى هذا القانون سائر المستشرقين فى العالم..

- بحث فى تقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية.. وكان ملما بعلم المثلثات..

- كتب عن الأرقام الهندية وتغير قيمها بتغير مواضعها..

- حل كثيرًا من المسائل الهندسية التى لا تحل بالمسطرة والبرجل.

- صنف فى الفلك دائرة معارف كبيرة..

- أما فى مجال الاقتصاد فقد دعا إلى اتخاذ قيمة ثابتة للمعاملة فى المبادلات لتسهيل تبادل المصالح.. كما تحدث عن الضرر الذى ينجم عن الغلو فى تقدير الذهب والفضة واختزانهما.. ويعتقد البيرونى أن الذهب والفضة إذا خرجا من معدنهما صارا كالزروع المحصورة.. والأنعام المذبوحة لا يسوغ غير أكلها وإنفاقها..

- وفى مجال التاريخ له عدة مصنفات مثل (الآثار الباقية) - (القانون المسعودى) ومنهجه فى البحث التاريخى يقوم على تمحيص مادة البحث وكراهية التعصب والتحرر من المؤثرات فى الأحكام:

وكان حريصا على الاطلاع على ثقافات الأمم الأخرى من مصادرها الأصلية دون الاعتماد على الترجمات من أجل ذلك تعلم السريانية والعبرية..

- ومن الأصول التى حققها البيرونى (دوران الأرض) وهذه عبارته فى هذا التحقيق:

(أمـا دوران الأرض وانقذاف ما على سـطحها فى الفضاء من حيوان ومسـاكن فالجاذبية تمسكهم.. فكل شيء على الأرض مرتبط مرفوع إلى مركز الأرض أما أن الأرض تدور ولا تدور السماء.. أو أن الأرض ساكنة وحولها السـماء تدور.. فأمران مسببان.. فالأرض منسوبة إلى السماء.. كالسماء منسوبة إلى الأرض)

وهكذا يسـبق البيرونى نظرية جاليليو بقرون طويلة.. وسبق نيوتن فى معرفة أن الفترات المتساوية بين الزوايا لا تقابلها تغيرات متساوية فى الجيوب.. وله فى ذلك كتاب فى استخراج الأوتار فى الدائرة..

وقـد كان البيرونى طوال حياته من طفولته إلى شـبابه إلى كهولته.. مكبا على البحث والدراسة والتصنيف.. فلا يفارق القلم يده.. ولا النظر عينيه ولا التفكير عقله..

فهو فلكى ممتاز.. بشهادة علماء الفلك غربًا وشرقًا..

وهو جيولوجـى محنك.. ومؤرخ محقق.. وعـالم رياضى عاش على علمه نيوتن وجريجورى وغيرهما..

ويعد أبا الجغرافيا البشرية..

ولم يكـن طامعا فى منصب.. لكنه كان يمارس العلم خالصًا لوجه الله ولمصلحة البشرية..

ويحكى أن أحد السـلاطين وجه إليه ثلاثة جمال تنوء بأحمالها من نقود وفضة فردها البيرونى قائلًا: إنه يخدم العلم للعلم لا للمال..

ويروى ياقوت الحموى عن النيسابورى يقول:

- دخلت على أبى الريحان وهو يجود بأنفاســه الأخيرة.. وقد حشرج نفسه.. وضاق به صدره.. فقال وهو فى تلك الحال:

- كنت قلت لك يوما حساب الجدات الفاسدة..

فقلت له إشفاقًا عليه: أفى هذه الحال..

قال: يا هذا.. أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المســألة.. ألا يكون خيرًا من أن أخليها وأنا جاهل بها..

فأعدت عليه ذلك وحفظه..

وخرجت من عنــده وأنا فى الطريق سمعت الصــراخ.. فأدركت أنه فارق الدنيا..

لقد عاش البيرونى نحو ســبعين عامــا وتوفى فى (٤٣٣هـ) وقد تنازع جنســيته شــعوب الترك والفرس والروس والأفغان والهند والعرب.. كل قوم متمسكون ومتباهون به..

من أجل ذلك كان تكريمه فى كل مكان.. فقد أنشئت فى طشقند عاصمة أوزبكستان (جامعة البيرونى) وأقام المتحف الجيولوجى بجامعة موسكو تمثالا له بجانب علماء الجيولوجيا العظام فى العالم..

وفى عام ١٩٥٠ أصدرت أكاديمية العلوم السوفيتية مجلدًا ضخمًا باسمه يضم سيرته وأبحاثه ومؤلفاته..

وأصدرت الهند عام ١٩٥١ مجلدا آخر عنه باللغات الأردية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية..

أما جامعات الغرب فتعكف على أبحاثه ودراســاته وتقوم بشــرحها ونشرها فى كل مكان..

أما العالم فاروق الباز فقد ســجل اسمه بين ثمانية عشــر عالمًا إسلاميًا على بعض معالم القمر..

هذا إذن أبو الريحان البيرونى العلامة الفارقة فى القرن الحادى عشر الميلادى والذى سبق علماء العالم فى البحث والتصنيف.. وأسهم فى صنع التاريخ منذ أن كان فتى يفتح عينيه على حقائق الوجود.



ابن بطوطة.. وأحلام الرحلة

كان الرحالة العربى قد بلغ جزرًا تسمى (ذيبة المَهَل) وهى جزائر المديف الحالية.. وتشتهر بالجمال الطبيعى الساحر والهدوء والنساء الجميلات.. فركب إليها البحر.. ووجدها إحدى عجائب الدنيا.. فهى مستديرة كالحلقة لها مدخل كأنه الباب.. لا تدخل المراكب إلا منه.

ويصل الرحالة.. ليكتشف أن سكانها يدينون بالدين الإسلامى.. وقد أعجب بما يسود الجزيرة من هدوء..غير أن حالة النساء فى هذه الجزر استدعت انتباهه أكثر من الرجال.. فهن يمشين دون غطاء على رءوسهن.. ويمشطن شعورهن.. ولا يلبسن سوى فوطة واحدة تسترهن من السرة إلى أسفل أما سائر أجسامهن فتبقى مكشوفة.. وهن يغالين فى استعمال الحلى.. ويكثرن من لبس الأساور من الفضة أو الذهب..

ثم يسهب الرحالة ابن بطوطة فى موضوع الزواج بأولئك النسوة فى هذه الجزر.. فهو سهل ميسور لقلة الصداق.. ومن ثم فهو يتم فى وقت سريع إذ يخرج أهل الجزر إلى الشاطىء لاستقبال السفن.. ويعرضون خدماتهم على ركابها.. ويساعدونهم على الزواج بمن يشاءون من النساء.. أى أنه كان نوعا من زواج المتعة..

ومن أطرف ما حكاه ابن بطوطة عن زواجه فى هذه الجزر.. إنه حين هبط جزيرة (ذيبة المَهَل) وهو موضع حفاوة من الوزير ســليمان.. الذى منحه بستانًا وبعث له بجارية يقال لها (قل ستان) أى (زهرة البستان) وكانت تعرف اللسان الفارسي.. وكان هو يجيده.

ثم يبعث الوزير إليه رسولًا يعرض عليه أن يزوجه ابنته.. لكن ابن بطوطة أبى هذا العرض وتطيّر منه حين عرف أن رجلين قبله قد تقدما للزواج بها.. وماتا قبل ليلة الزفاف..

ويصاب ابن بطوطة بالحمى من كثرة القلق والاضطراب فى نفســه.. ولما بلغ الوزير ذلك أرســل إليه يســترد كل الهدايــا والمال الذى حصل عليه منه.. وبعث إليه رســولًا آخر ينصحه سرًا بالإقامة وعدم مغادرة الجزيــرة.. وأدرك ابن بطوطة ألا مفر مــن البقاء.. وفضل أن يمكث فى الجزيــرة برغبته حتى لا يضطر إلى الإقامــة بها مكرهًا.. وقبل الزواج على مضض.. وأخذ الوزير يستعد للاحتفال بعقد القران ونصب سرادقا فخمــا لهذا الحدث الكبير.. ولكن ما حــدث أمر غريب بعد أن اجتمع ســائر المدعووين.. إذ لم يحضر الوزير إلى الســرادق.. وطال الانتظار.. وهنــا همس أحدهم فى أذن ابن بطوطة بــأن ابنة الوزير رفضت الزواج منه.. وأن الوزير يعرض عليه إنقاذًا للموقف أن يتزوج بامرأة جميلة من نساء القصر.. فقبل ابن بطوطة وحمد الله أنه لم يتزوج ابنة الوزير..

كانت هذه إحدى القصص التى حدثت للرحالة ابن بطوطة فى رحلته الطويلة من الغرب إلى الشرق..

وابــن بطوطة ولد فى مدينة طنجة عام ١٣٠٤م (٧٠٣ هـ) واسمه هو محمــد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم؛ أبو عبد الله اللواتى الطنجى.. وتوفى فى عام ١٣٧٧م (٧٧٩ هـ)..

وهــو ينحدر مــن بيت فقهــاء تولوا القضــاء بين النــاس.. فتربى ابن بطوطة فى مهد دينى وســار على نهج أسرته.. حيث درس العلوم الدينية فى صباه.. وتعلم الأدب والشعر..

وتفتحت مواهبه فى العشرين من عمره إذ فكر فى مغادرة بلاده - المغرب - بقصد تأدية فريضة الحج ومشاهدة قبر الرسول (ﷺ)..

وكان يهدف من ذلك الخروج من حياته المســتقرة إلى حياة المغامرة.. لقد سمع عن هؤلاء المســلمين منذ القــرن الثالث الهجرى الذين ارتادوا بلاد الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف.. من حدود الهند شرقًا إلى المحيط الأطلســى غربًا.. ومن آســيا الوســطى وجبال القوقاز شمالاً إلى صحــارى أفريقيا جنوبًا.. وهو يدرك أن هــؤلاء كانوا يقومون بهذه الرحلات بتكليف رسمى من السلطة الحاكمة..

وقف ابن بطوطة على أخبار أولئك الرحالة الســابقين فأثارت عنده ملكة مشاهدة هذه البلاد القاصية مع البدء بحج بيت الله الحرام..

حمــل الرجل فى داخله هذه الأشــواق الكبيرة.. وهاهو يدرك أن الله منحه جســمًا قويًا يتحمــل المتاعب.. وعقلاً يســتوعب الحياة والأمور الاجتماعيــة والدينيــة ربما أكثر مــن غيره.. كما أن لــه معرفة بطب الأعشاب الذى كان الناس يتداوون به فى ذلك الزمان..

إذن كل شىء لديه مستعد للمغامرة وتحقيق أحلامه..

وفى عامه الثانى والعشـرين (٧٢٥هـ) بدأ ابـن بطوطة رحلته إلى بيت الله الحرام.. فيزور شمال أفريقيا ومصر.. والشرق الأوسط وأفريقيا الشرقية وصعيد مصر ثم عبر البحر الأحمر إلى بلاد الشام وفلسطين ومنها إلى مكة.

وحينمـا أدى فريضـة الحج لم يعد إلى بلده.. بـل اخترق العراق ثم رحل إلى بلاد العجم (فارس) كما زار الموصل وديار بكر.. وعاد إلى مكة ثانيـا حيث مكث فيها عامـين (٧٢٩ و٧٣٠).. ثم قام برحلة ثالثة إلى جنوب بلاد العرب فأفريقيا الشـرقية.. ومنها عاد إلى خليج فارس وإلى (هرمز) ثم عاد إلى مكة..

ويبـدأ رحلة أخرى إلى بلاد القرم وآسـيا الصغرى.. سـالكًا الطريق الآمن - طريق مصر الشـام - وزار القسـطنطينية ضمن حاشية الأميرة اليونانية زوجة السلطان محمد أوزبك..

ومن الفولجـا اخترق ابن بطوطة خوارزم وبخارى وأفغانسـتان فى طريقـه إلى الهند.. وفى (دهلى) أو (دلهى) تـولى القضاء بين الناس.. وبعد عامين اشـترك فى بعثة سياسـية إلى الصين.. غير أنه لم يصل إلا إلى جزر المديف وهناك تولى القضاء لمدة عام ونصف عام..

ومن الملديف قصد بلاد الصين عن طريق جزيرة سرى لانكا (سيلان).. والبنغـال والهند الأقصى.. ثم رجع إلى بـلاد العرب عن طريق جزيرة سـومطرة.. وفى عام ٧٤٨ هـ نزل ظفار بعد رحلـة اخترق فيها بلاد العجم.. ثم إلى بين النهرين.. ثم مصر..

ومـن مصر إلى مكة المكرمة للحج للمـرة الرابعة.. ثم عاد قافلًا حيث اخترق شمال أفريقيا ودخل مدينة فاس فى عام ٧٥٠هـ ثم إلى غرناطة..

رحلة طويلة شاقة لكنها بالنسبة إليه معرفة واسعة أراد ابن بطوطة أن يسـجلها بدقة وبتفصيل.. فقد كان لا يترك شيئًا تلتقطه حواسه إلا كتـب عنه ووصفه.. ومـن ذلك ما قاله حينما هبط مدينة الإسـكندرية حيث يقول:

- حرسـها الله.. وهى الثغر المحروس.. والقطر المأنوس.. العجيبة الشـأن الأصيلة البنيان. بها ما شـئت من تحسـين وتحصـين.. ومآثر وميادين.. كرمت مغانيها.. ولطفـت معانيها.. وجمعت بين الضخامة والإحكام.. أما مبانيها فهى الفريدة تجلى سناها.. والخريدة تتحلى فى حلاها الزاهية بجمالها المغرب.. الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب فكل بديعة بها خيلاؤها.. وكل طرفة إليها انتهاؤها..

وحينما زار مسجد عمرو بن العاص فى القاهرة وصفه بقوله:

- ومسـجد عمرو بن العاص مسـجد شـريف كبير القدر.. شـهير الذكـر.. تقـام فيه الجمعـة.. والطريق يعترضه من شـرق إلى غرب.. وبشـرقه الزاوية.. حيث كان يدرس الإمام أبو عبد الله الشافعى.. وأما المدارس بمصر.. فلا يحيط بها أحد بحصرها لكثرتها.. وأما المارسـتان «المستشـفى» الذى بين القصرين عنـد تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسـنه وقد أعد فيه من المرافـق والأدوية ما لا يحصر.. ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم..

وحينما اقتربت السفينة من جزيرة سيلان.. وتجلى عليه جبلها من بعيد شاهقًا فى الفضاء كأنه عمود دخان.. توجه ابن بطوطة إلى سلطان الجزيرة يلتمس منه الإذن بمشاهدة آثار آدم.. وإشباع غريزة حب الاستطلاع عنده. ويروى ابن بطوطة مادار بينه وبين سلطان الجزيرة قائلًا:

- فقلت للسلطان: قدم آدم عليه السلام.. وهم يسمونه (بابا) ويسمون حواء (ماما).. فقال السلطان: هذا هين.. نبعث معك من يوصلك وبعث معى أربعة من الجوكية (رجال يحترفون الشعوذة) الذين عادتهم السفر كل عام إلى زيارة القدم.. وثلاثة من البراهمة.. وعشرة من سائر أصحابه.. وخمسة عشر رجلًا يحملون الزاد.. وأما الماء فهو بتلك الطرق كثير..

وبعد أن أتم ابن بطوطة مشاهدة هذه الآثار عاد بطريق ماما ومر بمدينة (دينور) التى يوجد بها صنم يعرف باسم المدينة موضوع فى كنيسة عظيمة فيها نحو الألف من البراهمة والجوكية.. ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود.. يغنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن.. والصنم من ذهب على قدر الآدمى.. وفى موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان..

ويعود ابن بطوطة إلى المغرب فى عام (٧٥٤) فى طريقه إلى فاس حيث حضرة (مولانا أمير المؤمنين.. فقبلت يده الكريمة وتيمنت برؤية وجهه المبارك وأقمت فى كنف إحسانه بعد طول الرحلة.. وهاهنا

كان ختام الرحلة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار.. وعجائب السفار وكان الفراغ من تقييدها فى ثالث ذى الحجة عام ستة وخمسين وسبعمائة.. ١٣٥٥م)

وهكذا كانت رحلة ابن بطوطة التى استمرت ما يقرب من ثلاثين عاما من أحلام المعرفة.. والشوق إلى الرحلة.. والمتعة والمغامرة.. وها هو يترك لنا هذا التراث المعرفى بالبلاد التى زارها جغرافيا وثقافيا واجتماعيا.. ووضع بذلك أصول الرحلة فى صفحات التاريخ العربى..



جان دارك.. منقذة فرنسا

في عام ١٨٩٥ أصدر الكاتب الأمريكي الساخر (مارك توين) روايته عن (جان دارك) وهذا الكاتب اشتهر بنقده اللاذع الذى يهدف إلى الهدم والتشويه ولا يهدف إلى البناء.. ومن ثم جاءت كتاباته مختلفة عن أى كُتاب آخرين اشتهروا بالسخرية.. لكنه كتب روايته عن (جان دارك) بكل الفخر والاحترام.. مما أدهش الناس والنقاد.. فهو هنا يخرج عن طبيعته فى الكتابة.. وعندما سئل: لماذا كتبت بكل هذا الاحترام عن هذه الشخصية؟ قال: إن البطلة جديرة بالاحترام.. وحين يكون لدى موضوع يستحق الثناء والاحترام ستجدوننى غير متردد فى تناوله فى شكل جدى ومحترم.. وهذا هو الدليل..

وقد قال لأصدقائه حينما أقبل على كتابة هذه الرواية:

- سأكتب عن عذراء أورليانز نصا فى منتهى الجمال والجدية.. نصا يشغل القلب والفكر فى هذه الأيام بهالاتها الدينية العظيمة..

لقد تخلى مارك توين عن طبيعته التى يكتب بها لأن جان دارك كانت مثالاً مختلفًا يستحق التقدير والفخر..

فى السادس من يناير عام ١٤١٢ ولدت جان دارك بمدينة (دومريمى) الواقعة شمال شرقى فرنسا.. وتوفيت عام ١٤٣١ فى التاسعة عشرة من عمرها..

وهى تنتمى إلى أسـرة ريفية بسـيطة تعمل بالزراعة.. فالأب فلاح فقير وقد يقوم برعى الغنم.. والأم فلاحة طيبة متدينة تسـاعد زوجها فى الحقل وأحيانًا تجلس للعمل أمام النول لنسج الخيوط..

وكان البيت الريفى البسـيط يقـع بجانب كنيسـة القرية.. وهكذا تفتحت حواس الطفلة (جان) على أجراس الكنيسـة.. وصوت التراتيل الدينية والصلاة صبح كل أحد..

وحينما بلغت السـابعة من عمرها بدأت تشـارك أباها فى العمل.. فتخرج معه إلى الحقل.. وتظل معه طوال اليوم حتى يعود..

وكثـيرًا ما كانـت تجلس تحت شـجرة جميز عجـوز تتأمل قدرة الخالـق فى صنع العالم.. وحينما تعـود إلى البيت تحدث أمها عن هذه الأفكار فتقوم الأم بشرح الدروس الأخلاقية والدينية.. ورواية حكايات القديسين ومن بينها تلك الحكاية الشهيرة عن القديسة (مارجريت).

ولاحظت جان أنها تشـبه القديسـة مارجريت فى طريقة حياتها.. فالقديسة كانت من أسرة ريفية بسيطة وعملت بالفلاحة ورعى الغنم.. وكانت تذهب إلى الكنيسة منذ طفولتها.. كما تفعل جان..

وتحكى لها أمها أن القديسة مارجريت حاولت أن تدخل الدير لكن الحكام الرومـان حالوا بينها وبين دخولهـا إلى الدير ثم قبضوا عليها وعذبوهـا عذابا مفرطًا لكى يجبروها على التراجع عن تدينها.. وإنكار وجود الله.. لكنها لم تستسلم وظلت متمسكة بإيمانها برغم ما لاقت من صنوف العذاب.. فوضعوها فى السـجن.. وهناك ظهر لها الشيطان فى

صورة وحش مخيف تخرج من فمه وأنفه النيران والدخان.. ويهددها بالموت.. إن لم تتراجع عن إيمانها.. لكنها أيضا لم تتراجع.. وتحملت ألوان العنف والعذاب..

وبعد أيام من السجن والاضطهاد.. تبدد الظلام وامتلأ المكان بالنور وسمعت مارجريت صوتا يناجيها: طوبى لك أيتها القديسة المؤمنة.. لقد انتصرت بقدرة الله على أعدائك.. وستنتقلين الآن إلى السماء لتنعمى بالراحة والسلامة والهناء..

كانت حكاية القديسة مارجريت سببا مباشرا فى قوة إيمان جان دارك.. بل دفعتها إلى مزيد من التأمل كلما خرجت إلى الطبيعة.

وهاهى أصبحت حريصة على الاستيقاظ كل يوم على رنين أجراس الكنيسة.. بل جعلها إيمانها من الشجاعة والقوة بحيث كانت لا تخشى أن تمشى فى الأماكن المظلمة.. وكأنها تحس أنها تسير فى معية حراس إلهيين يحفظونها من أى سوء..

تعمق فى داخلها هذا الإحساس.. فتعمق إيمانها بالله.. واتسع تأملها.. وزادت أسئلتها التى تطرحها على أمها تارة.. وعلى قس الكنيسة تارة أخرى.. حتى تصل إلى مرحلة اليقين..

وكانت جان تعرف أن بلادها تحت سيطرة الاحتلال الانجليزى منذ عام ١٣٣٧.. وأن البشر يعانون ألوان الذل والعذاب من هذه السيطرة الغاشمة.. بل إن الفرد الانجليزى ينظر إلى الفرنسى باحتقار وإهمال..

بالإضافة إلى عمليات النهب والسلب والاعتداء الوحشى على الناس ولم تكن الطفلة تملك سوى البكاء على ما آلت إليه بلادها الحبيبة..

وفى صباح أحد الأيام ربيع عام ١٤٢٤ كانت جان دارك تجلس كعادتها فى ظل شجرة الجميز العجوز.. فإذا بها تستمع لهاتف يناديها..

قامت جان من مكانها تدور حول الشجرة لعلها تعرف صاحب الصوت لكنها لم تجد أحدا.. فتطلعت إلى السماء فإذا بها ترى حزمة من النور تتخلل السحاب وسرعان ما تتلاشى.. تقدمت خطوتين لعلها تتابع هذه الحزمة المضيئة فإذا بالصوت يناديها من خلفها مرة أخرى قائلا:

- جان.. جان.. أيتها العذراء المؤمنة.. أنت ابنة الرب.. وقد اختارتك العناية الإلهية لعمل عظيم.. فحافظى على إيمانك وطهارتك ونحن معك.!

ارتعدت جان ابنة الثانية عشر ربيعا.. وأخذت تفكر فى معنى هذه الكلمات التى استمعت إليها..

ولم تجرؤ الفتاة على إخبار أمها بما سمعته.. بل أخذت تنتحى جانبا فى البيت تقرأ وتفكر وتتأمل..

واعتادت أن تذهب كل يوم إلى هذه الشجرة.. وتتذكر قصة القديسة مارجريت.. فماذا عنها وعن هذا العمل العظيم الذى ينتظرها..

ثلاث سنوات والفتاة يتكرر لها هذا النداء بين يوم وآخر.. وكان يأتيها ليس فقط تحت الشجرة.. لكن لم يفرق النداء فى الوصول إليها بين الليل والنهار.. أو تحت الشجرة وفى الغابات..

وهاهو النداء يطلب منها أن تخلِّص فرنسا من أعدائها الإنجليز.. ورفع الحصار عن أورليان..

مــاذا تفعــل هذه الفتــاة التى ترتــدى معطفها الخشــن من الصوف وحذاءها الخشبى الغليظ؟!

فكرت فى الذهاب إلى حاكم المدينة لكى يأمر ببعض الرجال والحراس لأنها تريد مقابلة ولى عهد فرنسا والعمل على تتويجه ملكًا..

لم تكن المهمة سهلة بالطبع.. بل تعرضت الفتاة للسخرية.. والاتهام بالجنون والشــعوذة.. وطردها حاكم المدينة وأمــر بضربها حتى تعود إلى رشــدها.. لكن الفتاة لم تستســلم وصاحت بأن ذلك ما أرادته السماء منهــا.. وأخذت تتحدث للحاكم بمنطق ســليم أقنعه أخيرًا بما تريد.. فأرسل معها خمسة وعشرين رجلًا من الحرس والخدم..

أمــا جان دارك.. فقد قصت شــعرها.. ولبســت ملابــس الرجال وامتطــت حصانًــا أبيض.. وحملت فــى يدها راية بيضــاء.. وبدأت رحلتها إلى ولى العهد..

وبعد عشرة أيام وصلت إلى مدينة (شنون).. وهناك طلبت مقابلة ولى العهد.. فقوبلت بالســخرية.. ثم قابلها بعض القساوسة ليعرفوا منها ما تريد.. فشــرحت لهم مهمتها.. وبصعوبة شــديدة اقتنعوا بمنطقها وسمحوا لها بمقابلة ولى العهد فقالت له:

– أنــت الملــك الآن.. أعطنى جنــودا أنقذ أورليــان.. وأذهب بك إلى (ريمز) حيث تمسح بالزيت المقدس وتتوج ملكا وفق مشيئة الرب..

ووعدهــا ولى العهد.. وتباطأ قليلاً حتى يستشــير أعوانه.. ولما أيقن إيمانها وطهارتها وبعدها عن الشــعوذة والجنون.. أصدر قرار بتوليها

قيـــادة الجيش.. لتحريـــر أورليان التى يحاصرها الإنجليز منذ ســتة أشهر.. ويقيمون حولها اثنى عشر حصنًا..

وحينما بلغت جان بالجيش تلك الحصون كتبت رسالة وربطتها فى سهم لتهبط داخل الحصون.. وكانت تقول:

- باســـم الرب آمركم بالعودة إلى بلادكـــم.. فإن لم تفعلوا فحذار من العذراء..

وأخـــذت تلقى عدة رســـائل أخرى لقواد الإنجليـــز بأسمائهم لعلهم يجيبون على رسائلها.. لكن الإنجليز لم يبالوا بهذه الرسائل..

فأمرت جان جيشـــها باقتحام الحصون.. واستطاعت بشجاعة نادرة دخول أورليـــان فى ٢٩ إبريل عام ١٤٢٩ وأخـــذت تقتحم حصنًا حصنًا وتقود الجيش الفرنسى إلى النصر..

وبينما كانت تتســـلق أحد الحصون أصيبت بســـهم فوق ثديها لكنها استجمعت قوتها ونزعت السهم وواصلت القتال..

واستسلم الإنجليز بعد عشرة أيام من القتال وانسحبوا من أورليان بعد أن قتل منهم نحو أربعة آلاف جندى وأسر قائدهم (تالبوت) ثم أسرعت إلى ولى العهد (شـــارل) وطلبت منه أن يسير إلى مقر الحكم (ديمز) ليتم تتويجه.. لكن لم يستجب إلا بعد شهر من دخولها أورليان..

وتوج شـــارل ملكًا على فرنسا وســـأل جان عن الخدمة التى يمكن أن يقدمها لها نظير خدماتها الجليلة.. فلم تطلب ســـوى إعفاء قريتها من دفع الضرائب.. فوافق الملك..

وأرادت أن تعــود إلى قريتها لكن الملك طلب منها مواصلة العمل من أجل النصر على إنجلترا..

فقادت الجيــوش مرة أخرى ووصلت إلى قلعة باريس وكانت شــديدة المقاومة.. فطلبت من الملك شارل أن يمدها بمزيد من الجند والعتاد.. لكنه كان متخاذلاً.. وسحب جزءًا كبيرًا من الجيش لكن جان واصلت قتالها..

ولم تكــن القوتان متكافئتين.. فحوصرت جــان وأصيبت فى فخذها وسقطت من فوق جوادها.. ووقعت فى أيدى جنود بورجونى المعارض.. وتم بيعها إلى الإنجليز بعد أن ألصقوا بها تهمة السحر والشعوذة..

ووجدها الإنجليز فرصة مواتية لمحاكمتها محاكمة كنسية.. حيث رأس المحاكمة الأســقف (بيير كوشون) وكان متعصبًا دمويًا.. فاتهمت بالإلحاد والارتداد.. وكان الحكم بإحراقها حية فى ٣٠ مايو ١٤٣١..

واحترق جســد جان دارك.. وظلــت أمها تعيش فى حزن طويل على فقد ابنتها.. واستيقظ ضمير الملك شارل واعترف بأنه مدين لها بما فيه من شــرف وملك.. وأمر بإقامة محراب لها باسم (القديسة جان دارك) منقذة فرنسا.

وفــى عــام ١٤٥٠ أقيمــت محكمــة خاصــة لتكريمهــا (أى بعــد ٢٩ عامــا) من إحراقهــا.. وظلت ســيرتها متداولة حتى جــاء البابا (بندكت الخامس عشــر) وأصدر قرارا عام ١٩٢٠ بمنح اسمها قديسة.. وعرفت باسم عذراء أورليانز..

لقد أحدثت جان دارك أثرًا كبيرًا فى تاريخ المقاومة الفرنسية برغم صغر سنها مؤكدة أن طاقة الشباب المتوهجة يمكن أن تصنع المستحيلات..

وهاهى فرنسا تقيم لها التماثيل.. وتنشر صورها فى كل مكان رمزًا للوطنية والشجاعة..

ويتبارى الكتاب والشعراء فى الكتابة عن القديسة الفتاة.. فهذا الفيلسوف فولتير يكتب عام ١٧٥٥ قصيدته البطولية (عذراء أورليان) وهذا الكاتب الألمانى شيلر يكتب مسرحيته عنها عام ١٨٠١ وجورج برناردشو الأيرلندى يكتب مسرحيته..

ويؤلف الموسيقار العالمى (فردى) أوبرا عنها عام ١٨٤٥، أما الأعمال الدرامية فهى كثيرة منها: آلام جان دارك ويعد من أشهر مائة فيلم فى السينما العالمية..

لقد غيرت جان دارك وجه التاريخ الفرنسى وصنعت تاريخًا جديدًا.. وكانت أبرز وجوه المقاومة للاحتلال الإنجليزى فى أثناء حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا.



ليوناردو دافنشي.. الفنان العالم

ذاع صيت الفتى الفنان.. فأرسل رسالة إلى حاكم ميلانو (المورو) يعرض عليه خدماته الفنية واختراعاته الحربية.. جاء فيها:

– ألتمس منكم موعدًا لكي أعرض على سعادتكم إمكاناتي الفنية والهندسية.. ففي أوقات السلم أعتقد بأني قادر على أن أعطيك ما يرضيك وما يبعث البهجة في نفسك بتصميم أجمل المباني.. وأستطيع أيضًا صنع التماثيل من المرمر والبرونز.. وفي فن التصوير أستطيع أن أبلغ ما لم يبلغه غيري من المصورين ممن علت مراتبهم الفنية وقدراتهم الإبداعية.. علاوة على هذا أستطيع القيام فورًا بصنع تمثال لوالدكم البطل العظيم ممتطيًا صهوة جواده من البرنز تخليدًا للمجد اللائق بذكراه.. وأن أقوم أيضًا بتخليد ذكرى أفراد عائلة (سفرتسا) المبجلين..

واستجاب الدوق لنداء الفنان ليوناردو دافنشي فاستدعاه فدخل عليه يحمل في يده قيثارة من الفضة على هيئة جمجمة جواد.. وصار يعزف عليها ألحانا من تأليفه ويغني بصوت عذب شجي.. ويروى أنه في تلك الأيام كان ساحر الحديث قوي البنية حتى تكاد تذوب بين يديه حدوة الفرس كقطعة من القصدير..

ويعد ليوناردو دافنشي أحد عظماء الرجال الذين عاشوا في إيطاليا في عصر النهضة.. وساعدته مواهبه الطبيعية على ارتياد مجاهل كثيرة في ميادين الفنون والعلوم..

ولد دافنشــي في قرية بالقرب مــن مدينة فلورانس عام ١٤٥٢ وكان معاصرًا لعدد من الفنانين منهم مايكل أنجلو- ورافايلو..

كان أبــوه يعمل مســجلًا عامًا في فلورانس.. ثم ألحقه أبوه بمرســم المصور (فيروكيو) ليبعده عن إخوته المشاكســين.. ولم يمض وقت طويل حتى صار في الثالثة عشــرة موضع ثقة أستاذه لما أبداه من استعداد فنى كان مثيرًا لدهشــته.. فأســند إليه تكملة صورة (تعميد المســيح) وكان ينقصها الملاك الأول في الزاوية اليمنى من اللوحة.. واســتطاع الفتى أن يتفوق على أســتاذه تفوقًا واضحًا حمله على الاعتراف بأن الملاك الثانى الراكع بجواره يبدو أقل قداســة وأقرب إلى الجنس البشرى وطبيعته.. فــي حين أن ملاك الفتى (ليوناردو) بدا مثاليا في لفتة رأســه وسمات وجهه ونظرات عينيه.. وبريق الضوء القدســي الذى تنفذ منهما أشعة الشــمس.. وعلى الفورأعلن أســتاذه اعتزاله لفن التصوير نهائيًا تاركًا مرسمه لتلميذه الصغير وتفرغ هــو لفن النحت والصياغة المعدنية التى كان يجيدها.

والغريــب في أمر هــذا الفتى أنه أراد المســتحيل.. وكان يجمع في شخصيته بين أمرين نقيضين.. فهو في بحوثه العلمية كان على خلاف مــع مثقفي عصره.. لا يأخذ بالنزعــة المثالية أو الأفلاطونية الجديدة.. ولا يحــاول قط الرجوع إلى الفلاســفة الإغريــق أو الرومان وإنما يعتمد فحســب على الملاحظة والتجربة الحسية المباشــرة بعيدًا عن كل نظرة ميتافيزيقية.. فيقوم بنفســه بتشريح جسم الإنسان.. ويراقب حركات

الطيور في طيرانها.. والرياح في هبوبها والأمواج في هديرها وزحفها.. كما ينكب على علوم الهندسة والمنظور والميكانيكا والهيدروليكا ويدرس الصخور والنباتات في تفاصيلها.. وهاهو يسجل كل ذلك في رسوم دقيقة تدل على قوة ملاحظة خارقة وصبر طويل..

أما في فنه - من ناحية أخرى - فنراه لا يعتمد على الحس والعقل بقدر ما يعتمد على بصيرته وتجربته الباطنة وأخيلته العجيبة.. وهي التي أضفت على لوحاته غلالة من السحر.. وأشاعت في جوانبها الأسرار والهمهمات المبهجة الخفية..

وكان أساتذته وأسلافه المباشرون من فناني فلورنسا يميلون إلى تحديد الأجسام بخطوط واضحة وألوان صريحة.. فإذا بدافنشي يكسو لوحاته بغبشة أشبه بغبشة الغروب.. تبرز منها الأجسام بروزا لطيفًا رقيقًا.. وكأنها خارجة من جوف عالم مجهول..

كما أنه لم يقنع بتصوير الأجسام.. وإنما لجأ إلى تصوير همسات الروح وخلجات النفس.. ومن هنا كان يقضي سنوات عدة في تصور كل لوحة من لوحاته.. ومن هنا أيضًا ترك كثيرًا من لوحاته غير مكتملة..

وفي عام ١٤٧٠ وهو لم يبلغ العشرين من عمره استطاع أن يحقق دراسة عملية لإجادة رسم طيات الملابس بغمس قطعة من القماش في سائل مخفف من الطمي المذاب في الماء.. وتشكيل طيات القماش على هيكل صغير من الخشب يشبه إلى حد كبير حركة الجسم تحت الملابس..

وساعدت هذه الطريقة المبتكرة الكثير من مصوري عصره على النهوض بفن التصوير.. وفي العام نفسه زاول التصوير بالألوان الزيتية لأول مرة -

وكان استخدام هذه الألوان حديثة العهد في إيطاليا – وهاهو يرسم بهذه الألـوان لوحة (عذراء ميونخ) وفى الإناء البلورى فى أحد أركان الصورة زهور البنفسج التى تدهش كل من يراها.. كما رسم بها عدة لوحات أخرى مهدت للوحته الفنية الكبرى (الموناليزا) أو (الجيوكاندا).

ويجئ عام ١٤٨١ لينال دافنشى شهرة فنية واسعة.. ويعهد إليه تصوير لوحة كبيرة تمثل (تبجيل ملوك المجوس للمسيح فى المهد) لوضعها فى كنيسة القديس (دوناتو) بالقرب من فلورانسا..

لكن ليوناردو توقف عن إتمام اللوحة لتوقف أجره عليها.. وتعود أهمية هذه اللوحة إلى تفوق الفنان فى قواعد التكوين.. فهى رؤيا درامية رهيبة نحسها فى تلك الوجوه القلقة الهلعة المحيطة بالعذراء..

ويرحل ليوناردو إلى ميلانو ويمكث هناك سبعة عشر عاما انشغل فيها ببحوثه العلمية ومخترعاته العجيبة.. وكان الفنان قد تعرف فى هذه المدينة بعدد من علماء الرياضة ومنهم مستشار خرستوف كولمبس.

وفى عام ١٤٨٣ قام الفنان بتصوير لوحة (السيدة والقاقوم .. وظل مشغولاً بإنجاز العديد من المشروعات الفنية والعلمية.. كما قام برحلات للشرق الأوسط وتعرف إلى الفن الإسلامى والثقافة الإسلامية..

أما عمله الكبير (العشاء الأخير) فهو من الأعمال التى استغرقت وقتًا طويلًا لإنجازها.. فقد بدأها ليوناردو عام ١٤٩٥ بقاعة الطعام فى دير (سانتا ماريا) وانتهى منها عام ١٤٩٨ تحت إلحاح راهب بالدير كاد أن يوقع بينه وبين الدوق.. فاضطر إلى استعمال الألوان الزيتية على ملاط الجدار مباشرة بدلًا من اتباع طريقة الفرسكو..

وكانت تجربته تلك هي الأولى من نوعها.. بعد أن عرف الإيطاليون خواص الألوان الزيتية التي اكتشفها الأخـوان (جان وهوبرت فان). لكن استعمال الفنان للألوان الزيتية على الملاط كان له تأثير سئ عليه وظهر ذلك على شكل تشققات أصابت السطح.. لكنه برغم ذلك نجح في التعبير الدرامي داخل اللوحة.. وتجسيد لحظة قول المسيح لحوارييه: (إن واحدا منكم سيسلمني) فرسم هؤلاء الحواريين في مجموعات تتخذ صـورة أنصاف دوائر أو موجات متتالية وكأنها تردد وقع الصدمة التي أثارتها هذه العبارة.. بحيث بدت على أشـدها في الوجوه القريبة من المسيح.. تخف تدريجيا بابتعادها إلى طرفي اللوحة.

ومـن الطرائف التي تحكى حول إنجـاز هذه اللوحة أن دوق ميلانو كلفـه بها.. فكان الفنان لا يعمل إلا في لحظات الإلهام.. وكان يأتي إلى الدير من بعيد مشيًا على الأقدام ليتأمل سطح الجدار بعد تلويثه بتراب بهي اللون.. ومن خلال الرؤية المتأملة ساعده خياله على أن ترى عيناه هـذا التكوين.. ولقد أراد الراهب أن يوشـي به لـدى الدوق بحجة أنه يضيع الوقت بدون عمل.. وأنه يحضر إلى الدير في أوقات غير مناسـبة ليجلـس أمام الجدار مكتفيًا بالنظر إليـه دون أن يضع فيه خطًا.. وأنه يشك في قدرته على إنجاز العمل..

واستدعاه الدوق وواجهـه – في حضرة الراهب – فأجاب دافنشي:

– لقد كنت يا سـيدي أفكر في رأس السـيد المسـيح فلم أجد أجمل ولا أطهر من وجهك السـمح ليكون رمزًا له.. وتمهلت حتى أعثر على

رأس آخر أستعين به على تصوير وجه الخائن الغادر يهوذا.. وها أنذا أعثر عليه أخيرًا.. إنه رأس هذا الراهب العنيد..

وسر الدوق بهذه الإجابة التى أحبطت مسعى الراهب للإيقاع بينه وبين الفنان..

ويعود ليوناردو إلى فلورانسا فقيرًا معدمًا بعد سبعة عشر عامًا فى ميلانو وظل يعمل مهندسًا حربيًا فى البلاط.. وأثبت أنه قادر على تشريح أعضاء الجسم البشرى والحيوان والنبات.. وأسندت إليه مشاريع كبرى واشترك هو و مايكل أنجلو فى تصوير لوحتين بغرفة المشورة بالقصر الجمهورى.

وتوثقت علاقته بالمجتمع والكنيسة ما بين عامى (١٥٠٠ و١٥٠٦) واستطاع بفنه أن يضئ الشموع فى بيوت أثرياء المدينة بعد أن انطفأت النار التى أشعلها الراهب الحزين (سافونا رولا) الساخط على الفن والفنانين خشية أن يرتد الناس إلى وثنية الإغريق والرومان..

ومن بين هذه الشموع المضيئة لوحة (موناليزا جيرارديني) المعروفة باسم (جيوكندا) وهى من مواليد نابولى عام ١٤٧٩ وتزوجت عام ١٤٩٥ وهى فى السادسة عشرة على كره منها ضابطًا يُدْعى (فرانشيسكو جيوكوندو) ولم يكن ليوناردو يظن أن تلك الفتاة التى دخلت مرسمه بصحبة زوجها ستشغل تفكيره وتثير اهتمامه طوال أربع سنوات ليخرج على العالم بتلك التحفة الفنية التى تعد أبدع بدائع الفنان..

ويتبارى الشعراء والكتاب والمصورون في التعبير عن عبقرية هذه الصورة ومن ذلك ما يقوله المصور الفرنسي (ميشلى):

- كلما نظرت إليها أشعر كأنها تناديني همسًا يكاد ينساب في كياني ويجذبني إليها فأقترب منها كالعصفور الذي يقدم نفسه طوعًا للثعبان. وتقول الأديبة الفرنسية جورج ساند:

- إن الجيوكندا هي صورة امرأة مثالية تتمتع بجاذبية نادرة وتكشف لنا عن قدرة الفنان المثيرة للإعجاب في التعبير عن الهدوء الذي يحيط بهذه الشخصية العجيبة..

ويعدها الكثيرون أكبر عمل فني في عصر النهضة.. ولقد كانت ابتسامة الموناليزا إلى ليوناردو هي دليل الحياة والأمل المرتقب.. ولقد ظلت من بعدها تضئ وجوه وشفاه صور العذارى والقديسات على لوحاته التي صورها.

بقي أن نقول إن طاقة دافنشي الخارقة كانت عونا له على تخطي كثير من العقبات التي لاقاها في حياته وتذليل طريق مسيرته في عالم المجهول بحثًا عن المعرفة منها دراسته لتشريح الأجسام البشرية والحيوانية والنباتية.. واكتشافه للدورة الدموية.. ومحاولة ارتياد الفضاء بتصميمه رسومًا للطائرة العمودية.. والمظلات الهابطة (البراشوت). كما اخترع أول قلعة حربية متحركة (الدبابة) والروافع المائية والغواصات ومشاريع أخرى لم يتم فيها شيء سوى ما جاء في مخطوطاته من رسوم وتصميمات تمهيدية.

وفى عام ١٥١٦ دعاه فرانسـوا الأول ملك فرنسـا واستضافه فى أحد قصوره.. فظل هناك مكرما حتى وفاته عام ١٥١٩ بعد أن أضاف الكثير إلى تاريـخ الفن فى عصر النهضة.. وجمع بـين الفن والعلم فى عبقرية إنسانية واحدة..



موتسارت.. الطفل الإلهى

كانت أوبـرا (الناى السـحرى) آخر ما أبدعه الفتـى قبل رحيله.. والتى تعد من أروع ما أنتج فى فن الموسيقى..

وبعد أن كتبت هذه الأوبرا آخر سطر فى مجده الفنى طلب إليه أحد النبـلاء أن يحقق رغبة إحدى الأميرات بتلحين قداس حداد يرتل عند موتها.. غـير أن الفتى أصيب بمرض أقعده فى فراشـه.. فأخذ يكتب لحن هذا القداس فى سريره مستعينًا بتلاميذه..

وفـى يوم ٤ ديسـمبر ١٧٩١ بينما كان بحضرتـه ثلاثة من تلاميذه يوقعون هذا اللحن المحزن.. بكى الفنان وهو نائم فى فراشه وقال:

- إننى لم أكتب هذا القداس للأميرة ولكننى كتبته لنفسـى.. وبعد ذلـك بيوم واحد رحل الفنان إلى العالم الآخر.. وكأنه كان يرثى نفسـه بما أبدعه من آخر ألحانه..

هـذا هو الفنان مرهف الحـس.. والمعجزة الإلهيـة التى لم تتكرر (ولفجانج أماديوس موتسارت) الذى يحتل فى تاريخ الموسيقى العالمية مكانة فريـدة.. بالرغم من حياته البائسـة.. وصعوبـات العيش التى واجهها طيلة حياته.. والتى اضطرت معها زوجته فى آخر عام من عمره إلى بيع ورهن متاعه لتواجه مقتضيات العيش هى وهو وأولادهما.

ولد موتسارت في عام ١٧٥٦ ومات في ١٧٩١.. وطوال الخمسة والثلاثين عامًا التي عاشها استطاع أن يجرى رافدًا قويًا من نهر الموسيقى الكبير..

نشــأ في بيت فني.. فقــد كان أبوه عازفًا ماهــرًا.. وملحنًا مجيدًا.. ومعلمًا ناجحًا..

ويلاحــظ الطفــل أن أباه يدرب أختــه (ماريا) علــى اللعب على آلة البيانو وما أن ينتهى الأب من هذا العمل.. حتى يسرع الطفل إلى البيانو ويعزف ما كان الأب يدرب أخته عليه..

كان الطفل فــى الثالثة من عمره.. وهاهو الأب يلتفت إليه.. ويدرك أن لديه طفلًا عبقريًا.. فأقبل عليه.. وأخذ يعتنى به والطفل يســتجيب في شوق وحماسة..

ولم يكمل الطفل عامه الرابع فكان لديه أكثر من قطعة موســيقية من وحى خياله الصغير تدل على عبقريته وتفوقه فى هذا الفن..

ويفضل أبوه أن يطوف به أوروبا ويعرفه على أساطين الموسيقى.. فخرج به من سالسبورج إلى ميونخ ومنها إلى فينا.. وهناك استدعته الأسرة المالكة هناك واســتحوذ الطفل على حب القيصرة فأغدقت عليه الهدايا.. وأرسل والده من ســعادته بنجــاح ولده برقية إلى زوجته يقــول فيها: ولفجانج جالس على رجلى القيصرة وهى تلاعبه وتمسك بعنقه لتقبله!

ثــم رحل الأب بولده إلى باريس ولندن.. ولحن الطفل – وكان قد بلغ الثامنة من عمره – لملكة إنجلترا ســت مقطوعات للبيانو المفرد والكمان المفرد.. كما كتب هناك أول سيمفونية للفرقة الكاملة..

ثم رحلا إلى هولندا ثم سويسـرا ليعود إلى سالسـبورج عام ١٧٦٦ ويسـتدعيه رئيس الأسـاقفة ويضمه إلى فرقته.. لكن موتسارت لم يتحمل معاملة الأسـقف العنيفة معه.. فهو لا يتورع من أجل هفوة صغـيرة أن يأمر أحد حراسـه بطـرد الفتى ورميه خـارج القصر.. فيتدحرج على درجات رخامية صلبة.. مما جعل موتسـارت يعجل بترك رئيس الأساقفة الظالم..

وفـى عـام ١٧٦٧ لحـن الفتـى العبقـرى بأمـر قيصـر النمسـا (جوزيف الثانى) أول أوبرا له..

وكان الفـن الإيطالى آنذاك هو سـيد الفن الأوروبـى.. ففكر الأب أن يصحـب ولـده إلى إيطاليـا.. وهناك نال موتسـارت إعجاب الشـعب الإيطالى.. ولقبوه بالمحبوب (أماديـوس).. كما أدى هناك امتحانا فى أكاديمية الفيلهارمونى - وهى أكبر هيئة موسيقية فى إيطاليا - وأدهش الجمعيه بعبقريته.. ثم طلب منه مدير مسرح الأوبرا فى ميلانو تلحين إحدى الأوبرات فلحنها ولاقت نجاحا كبيرا..

ويطلـب منـه قيصـر النمسـا تلحـين أوبـرا (زواج الفيجـارو) عام ١٧٨٥ - لكن حقد العازفين استطاع أن يسقط هذا العمل العظيم..

لكـن موتسـارت لم يستسـلم.. فلحـن بعد ذلـك أوبـراه الخالدة (دون جـوان) ومثلت لأول مرة فـى براج ومن طرائف ما حدث فى هذه الأوبرا أنه لم يكن لها مقدمة حتى يوم عرضها.. واستطاع أن ينقذ عمله هذا العظيم ويكتب الافتتاحية فى ست ساعات.

وكان نجاحه في تلك الأوبرا علامة جديدة في طريق تفوقه حتى إن أستاذه الموسيقار (هايدن) علق عليها بقوله:

- أنا لا أستطيع أن أخطو تلك الخطوة.. وأعترف أن موتسارت أكبر ملحن في العالم بأسره في الوقت الحاضر..

وتتابعت الأوبرات الرائعة التي خلدت هذا الفنان العبقرى.. ومنها (الناى السحرى) التي تعد أروع الأعمال الموسيقية.

وكانت أوبراه الجميلة أيضًا (اختطاف السراى) نموذجًا للمزج بين النموذج التقليدى للأوبرا الإيطالية.. والنموذج الجديد للأوبرا الألمانية الفكاهية..

وتدور أحداثها حول موضوع شعبى.. وتحكى قصته إنقاذ سيدة إسبانية (كونستانزى) من وسط حريم سليم باشا الذى كان يريد الزواج منها.

وعندما عرضت هذه الأوبرا أعجب الناس بألحانها المعذبة وبمرح الشباب الذى يعمها..

وكان موتسارت في ذلك الوقت قد تمت خطبته.. وربما كان شعوره بالحب والسعادة وأحلامه وأمانيه قد انعكست في ألحان هذه الأوبرا.

وكان موتسارت في أعماله حريصًا دقيقا في كل شئ..

ويحكى أنه كان يدرب الموسيقيين والمنشدين في أوبرا (دون جوان) ولاقى متاعب جمة من السنيورا بونديني التي كانت تقوم بدور (زورلينا) وكان الدور يحتم عليها أن تؤدى صرخة حقيقية عندما يوجه إليها

دون جـوان كل اهتمامـه.. ولكنها كانـت تأتي دائمًا بصرخـة واهية.. وعندما تكرر هذا الأمر أكثر من مرة.. قرر موتسارت أن يحملها على أداء ما يريد وبطريقته الخاصة..

وعندما جاءت لحظة الصرخة تسـلل موتسـارت خلفها وأمسك بها بخشونة فصرخت بأعلى صوتها من فرط دهشتها.. وقال لها: هكذا.. هكذا.. أريدك أن تصرخي في هذه الأوبرا.

وتعد حياة موتسـارت مثـالًا للبؤس والحرمـان.. ويحكي أنه أحب (لويزيـا) ابنـة الرجل الذى ينسـخ ألحانه.. لكنها كانـت فتاة لعوبا.. فبالرغم من حبه الكبير لها.. فقد كانت لا تبادله عاطفته.. بل كانت تنظر إليه على أنه لا يليق بها.. فهي كانت فائقة الجمال.. فارعة الطول.. أما هو فقد كان قصير القامة أشبه ما يكون بالأقزام.. نحيفًا يحمل على كتفيه رأسًا كبيرا ومن ثم انصرفت الفتاة إلى شاب آخر أكثر أناقة ووسامة..

وكان لهذه الفتاة أخت قبيحة تسمى (كونستانى) استطاعت أن تجذبه بحيلة نسـائية بمسـاعدة أمها وأرغمته على الزواج منهـا وكان الزواج موضع دهشة من أصدقائه.. حتى إن امبراطور النمسا سأله: لماذا لم تتزوج امرأة جميلة غنية.. فأجاب: يا مولاى لا تنسـى أننى أستطيع بعبقريتى أن أعـول المرأة التـى أتزوجها.. لكن هذا الـزواج كان بداية لقلقه وفقره ومرضه بالرغم من أنه رزق منها بستة أبناء..

لم يترك موتسارت ناحية من نواحى الموسيقى إلا اقتحمها وأبدع فيها أساليب جديدة..

ومرة تقدم منه شاب وسأله: كيف أتمكن من كتابة السيمفونيات؟
فأجابه موتسارت: أراك لا تزال صغيرًا على ذلك.. ويستحسن أن تبدأ بالتدريب على كتابة الأغانى والمقطوعات..
فقال الشاب: لكنك يا سيدى أنشأت سيمفونيتك الأولى وأنت فى العاشرة من عمرك؟
وهنا ابتسم الفنان الكبير وقال:
- هذا صحيح يا بنى.. ولكنى لم أسأل أحدًا آنذاك كيف أكتب السيمفونيات..
الفن إذن موهبة فى الأساس.. وليس تعليمًا أو تدريبًا.. فإذا لم يتمتع الإنسان بالموهبة.. فلن يجدى معه أى تعليم أو تدريب..
ومن ثم كان موتسارت حينما يكتب عملًا جديدًا يعطيه طاقته كلها وكأنه العمل الأخير الذى يبدعه.. فيجئ فيه بالسحر المبدع.. والفن المعجز.. حتى قال عنه (فاجنر):
- إن موتسارت استطاع أن يرينا فى تلحين أوبراته أن الموسيقى تستطيع أن تقف وحدها على المسرح دون الاستعانة بالفنون الأخرى.
لقد حرر موتسارت موسيقى بلاده من الأسر الإيطالى الذى كان هو صاحب السلطان والنفوذ فى جميع الأوساط الموسيقية.. بل كان الفنانون الإيطاليون يحتلون مكانة رفيعة فى فرق البلاط والأمراء والأشراف.. وها هو موتسارت يتعلم هذا الفن ثم يتفوق عليه بما يملك من نزعة التمرد.. ورغبة التجديد.

وعندما مات موتسارت في عام ١٧٩١ كان معدمًا برغم شهرته الفنية الواسعة لكن العالم قد عرف قدره بعد وفاته.. وهاهو ذا يحتفل فى عام ١٩٥٦ بمرور مائتى سنة عن ميلاده في كل مكان..

وقد اعتاد الناس في موسم الصيف من كل عام أن يهبطوا مدينة سالسبورج القديمة ليستمعوا إلى مؤلفاته بمهرجانات الموسيقى المختلفة.. وفي أوقات أخرى يقومون بجولات بالمدينة ويصلون إلى بيت موتسارت الذى كان يعيش فيه.. والنهر الذى اعتاد أن يجلس على شاطئه ويستسلم لأحلامه.

ويرحل موتسارت وهو فى قمة العطاء.. والخلق والإبداع. مات شابًا بائسًا لم يمش فى جنازته أحد.. فانحنى حامل الجثمان ليودعه فى مقره الأخير مع الفقراء.. وكأن لسان حاله يقول:

– أنا مدين لفقرى بنجاحى..!

مات موتسارت فقيرًا لكنه كان غنيًا بما أبدعه من الموسيقى التى تمتع العالم في كل يوم وليلة.. حتى الآن وإلى قرون قادمة أخرى..



نابليون بونابرت.. وأطماع الغزو

في أوائل القرن التاسع عشر.. اعترف نابليون بونابرت لمدام دريموزا بقوله: في مصر وجدت نفسي وقد تحررت من قيود حضارة مزعجة.. كانت الأحلام تملأ رأسي.. ورأيتني أؤسس دينًا.. وأزحف على آسيا وأنا أمتطي فيلًا.. وعلى رأسي عمامة.. وفي يدي القرآن الجديد الذي سأؤلفه ليلائم حاجاتي.. وكنت سأجمع في مشروعاتي بين خبرات العالمين.. وأسخّر لمنفعتي مسرح التاريخ كله.. وأهاجم قوة انجلترا في الهند.. فأجدد بهذا الفتح الاتصال بأوربا القديمة.. لقد كانت الفترة التي قضيتها في مصر أجمل فترات حياتي لأنها كانت أحفلها بالأحلام..

كانت أحلامه كبيرة.. وأطماعه واسعة.. تشبه إلى حد كبير أطماع الإسكندر الأكبر.. وهاهو يقول مرة أخرى:

- ليست أوروبا سوى تل صغير حقير.. كل شيء هنا يبلى مع الزمن لقد انقضى ما كسبت من مجد.. وأوروبا الصغيرة هذه لا تتيح مجالًا كافيًا من الأمجاد.. فلابد إذن من الذهاب إلى الشرق..

ندرك إذن أن شخصية نابليون كانت طموحة واسعة الأطماع إنه يريد أن يضع مجدًا وتاريخًا.. وذكرى لا تموت..

مــاذا إذن عــن هذه الشــخصية المحيرة التى انتهــى بها الحال إلى جزيرة سانت هيلانة فى منفى بعيد عن كل مجد وكل مطمع؟!

ولد نابليون فى ١٥ أغســطس عام ١٧٦٩ بجزيرة كورســيكا فى قصر آل بونابــرت.. وهــو الولد الثانــى لأبويه من أصل ثمانيــة أولاد أطلق عليهم اسم والدهم..

وتنحدر هذه الأسرة من جذور إيطالية نبيلة.. وخلال القرن السادس عشر قدم المحامى كارلو بونابرت إلى كورسيكا.. ليستقر فيها.. ثم يلحق ممثلًا لكورسيكا فى بلاط الملك لويس السادس عشر عام ١٧٧٧. ولم يكن الأب يعنــى كثيرًا بأولاده.. وتعد أم نابليون (ماريا يتيســيا رامولينا) الشــخصية المؤثرة فى تكوين شخصيته.. فقد كانت قوية صارمة شديدة الحزم.. إذ كان الفتى جامحًا متمردًا.. ومن ثم يمكن القول أن أمه لقنته التربية العسكرية منذ صغره.. فشب بها سلوكًا ومنهجًا فى حياته..

ولأن أســرته تنتمــى إلى النبلاء.. فقــد خاض نابليــون منذ صغره مجــال العلم والثقافة بشــكل لم يكن متاحًا لأى شــخص كورســيكى فــى ذلــك الزمان.. حيــث التحق نابليــون فى عــام ١٧٧٩ - وهو فى العاشــرة من عمره - بمدرسة اللاهوت فى مدينة (أوتون) حيث تعلم الفرنســية.. ثم التحق فى السنة نفسها بمدرسة بريان العسكرية التى تخرج البحارة..

كان نابليون ينطق اللغة الفرنســية بلكنة كورسيكية مما جعله محط ســخرية زملائه.. مما ســبب له العزلة وعدم الاختــلاط بهم.. ومن ثم

كرس كل طاقته للدراسة.. وكثيرا ما تفوق على زملائه فى الرياضيات والتاريخ والجغرافيا..

ثم يدخل نابليون المدرسة العسكرية الكبرى ليتخرج فيها ضابطًا للمدفعية وكان ذلك فى عام ١٧٨٥ حيث صار ضابطًا برتبة ملازم ثان.. وألتحق بإحدى الحاميات فى مدينتى فالينس وأوكسون..

وكان نابليون ضابطًا كورسيكيا وطنيًا متطرفًا.. وهاهو ذا يكتب إلى قائده (باسكال باولى) يقول:

- لقد ولدت فى العهد الذى كانت فيه الأمة تحتضر.. ثلاثون ألف فرنسى لفظوا على شواطئنا.. وأغرقوا عرش الحرية بأمواج من دماء، هذا ما كان عليه ذاك المشهد البغيض الذى كان أول ما وقعت عليه عيناى..

وفى السنوات الأولى من الثورة الفرنسية كان نابليون فى مسقط رأسه بجزيرة كورسيكا حائرًا بين التيارات المتصارعة على الساحة.. الملكيون والثوار.. والكورسيكيون الوطنيون..

وهاهو ينضم إلى نادى اليعاقبة.. ويرقى إلى رتبة مقدم.. ويترأس كتيبة من المتطوعين لمقاومة الجنود الفرنسيين الموالين للنظام الملكى ويقود عصيانا ضد فرقة من الجيش الفرنسى التى تعسكر فى كورسيكا.

وفى عام ١٧٩٣ كان نابليون قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره.. وفى هذا العام قام بنشر كتيب موال للنظام الجمهورى والدعاة إليه بعنوان (العشاء فى بوكير) فحاز الكتاب على إعجاب وتقدير (أوغسطين روبيير) وهو الشقيق الأصغر للقائد الثورى (ماكسمليان روبير)..

كما حصل نابليون على دعم عدد آخر من السياسـيين الثائرين.. فتم تعيينـه قائدًا لكتيبـة مدفعية القوات الجمهورية عنـد حصار مدينة (طولـون) الثائرة علـى حكومة الجمهوريين.. وبالفعـل وضع نابليون خطـة محكمة لاسـتعادة المدينة من أيدى البريطانيـين الذين كانوا قد استولوا عليها..

وتنجح خطة نابليون فى استعادة المدينة وطرد الأسطول البريطانى.. فيرقى إلى رتبة عميد وهو مازال فى الرابعة والعشرين من عمره..

ولابـد أن تلفت هذه الإنجازات من هذا الفتـى المؤتمر الوطنى الذى كان يحكم فرنسا منذ إلغاء الملكية..

وفى العام نفســه يعدم لويس السادس عشر بسبب اتهامه بالخيانة العظمى وينتخب المجلس الوطنى لجنة محدودة تقوم باتخاذ القرارت السياسية.. أطلق عليها (لجنة الأمن العام)..

لكن أعضاء هذه اللجنة – التسعة – استخدموا صلاحيتهم استخداما دكتاتوريا باطشـين بالناس.. وحدثت مناوشات وتمرد وقسوة تشكلت بعدها محكمة الثورة لمحاكمة المناوئين.. حيث قضت على نحو عشرين ألفـا تقريبا بالإعدام منهـم النبلاء ورجال الديـن والزعماء والعلماء.. وكانت الملكة (مارى أنطوانيت) من بين هؤلاء..

وكان ماكسمليان روبيير وشقيقه أغسطين بطلى هذا العهد من الإرهاب لكن أعضاء الحزب الوطنى استطاعوا أن يقبضوا عليهما ويقطعوا رأسيهما فى يوليو ١٧٩٤..

وأحـس نابليـون أنه فقد حماتـه وداعميـه.. بل قبـض عليه هو أيضًا ووضع تحت الإقامة الجبرية فى شـهر أغسـطس ١٧٩٤ لعلاقته بالأخوين الإرهابيين..

وفى إبريل عام ١٧٩٥ عين نابليون قائدا عاما لإحدى فرق المشـاة فى جيـش الغـرب.. ورأى أن هذا القرار إنزالا لرتبته العسـكرية فادعى المرض ليتفادى تنفيذ هذا القرار.. فتم نقله إلى ديوان الطبوغرافيا التابع للجنة الأمن العام.. وكان يتمنى أن ينقل إلى الأسـتانة ليعرض خدماته على السلطان العثمانى.. لكن ذلك لم يتحقق له برغم سعيه الحثيث..

ثـم أعلن الملكيون عصيانهم على المؤتمر الوطنى بعد اسـتبعادهم من الحكومة الجديـدة.. ومنح المؤتمـر نابليون مهمة الدفـاع عنه.. فقام بقصف الملكيين المهاجمين.. وقتـل منهم ألفا وأربعمائة ملكى.. وبهذا قضى على التهديد الذى كان يقلق راحة المؤتمر الوطنى.. وحصل نابليون على مكافأة مالية ضخمـة أعادت له توازنه من جديد.. ورقى إلى رتبة (قائد الداخلية) وعهد إليه مجددا بقيادة الجيش الفرنسـى المرابط على حدود إيطاليا.. حيث تم غزوها وإحراز انتصار باهر..

وفى هذا يقول نابليون: شـهدت ستين معركة ولم أتعلم شيئا سوى الذى تعلمته فى المعركة الأولى كمثل يوليوس قيصر الذى خاض معركته الأخيرة كما خاض الأولى..

وهـو يقصـد بذلـك أن تنظيماته العسـكرية تقوم على فـن الخداع والتجسـس واختيـاره للمواقع الخفية لنشـر جنـده.. وتركيزه على

الجوانب الضعيفة لدى العدو.. كما أنه نجح فى تحويله سلاح المدفعية إلى سلاح متنقل يتحرك مع الجيش من موقع إلى آخر..

ومن ثم صار لنابليون تأثير كبير على السياسة الفرنسية.. واقترب أن يكون الرجل الأول الذى لا يهزم فى فرنسا..

ويعرض نابليون على حكومة الإدارة القيام بحملة عسكرية على مصر واحتلالها للسيطرة على طريق بريطانيا إلى الهند والقضاء على مصالحها التجارية.. وكان نابليون يهدف إلى أن يكون لفرنسا موطئ فى الشرق الأوسط ويظهر للسكان المسلمين أنه صديق للخلافة وحام للإسلام.. خاصة مسلمو الهند..

وفى عام ١٧٩٨ انتخب نابليون عضوا فى الأكاديمية الفرنسية للعلوم.. فضم إلى حملته نحو ١٧٦ عالما من علماء الرياضيات والبيئة والكيمياء وغيرها.. وقد حقق هؤلاء العلماء اكتشافات مهمة على رأسها اكتشاف حجر رشيد.. وهاهو كتاب (وصف مصر) ينشر أبحاث هؤلاء العلماء عن المجتمع المصرى..

ويهبط الفرنسيون مدينة الإسكندرية فى أول يوليو عام ١٧٩٨ ويتظاهر نابليون باعتناقه الإسلام مدعيا أنه جاء إلى مصر للتخلص من المماليك باعتبارهم أعداء للسلطان العثمانى.. وأعداء لمصر.. والمصريين..

وتاريخ بونابرت فى مصر تاريخ أحداث ومعارك إلى جانب أنه تاريخ علم واستكشافات ودراسات..

وحينما استقر فى مصر دفع حملة أخرى قوامها ١٣٠٠٠ جندى إلى سواحل الشام فاحتل العريش وغزة ويافا والرملة وحيفا ووصل إلى صور..

وحدثت مواجهة بين الأسطولين الفرنسى والبريطانى أمام عكا.. مما اضطر نابليون إلى رفع الحصار عنها.. والتراجع إلى مصر عام ١٧٩٩..

وفى أثناء وجود نابليون فى مصر كان على اطلاع مستمر بما يحدث فى فرنسا حيث علم أن أوروبا تألبت على فرنسا وهزمتها.. فأبحر مسرعًا إليها وترك كليبر قائدا لقواته فى مصر..

ويفوز نابليون بمنصب القنصل الأول فى الانتخابات.. فانتقل إلى قصر التويلرى الذى كان ملوك فرنسا يحكمون منه.. وبهذا صار أقوى شخص فى فرنسا وقاد بلاده إلى انتصارات كثيرة..

وبدأ نابليون خطة إصلاح تعليمى واجتماعى فى البلاد.. لكنه أنشأ طبقة جديدة من أصحاب الامتيازات لا ترتكز على الحسب والنسب كما كان فى السابق.. بل على الخدمات الجليلة التى يقدمها الفرد لوطنه.. وعرف هذا النظام باسم (جوقة الشرف).

ويعلن دستور فرنسا نابليون قنصلًا عاما مدى الحياة..

ويتعرض نابليون لعدة مؤامرات لاغتياله على أيدى الملكيين واليعاقبة .. لكنها باءت بالفشل..

وبعد فشل حملته على مصر نتيجة المقاومة المصرية.. حاول نابليون عام ١٨٠٣ إقناع الدولة العثمانية بالدخول معه فى حلف ضد الإمبراطورية الروسية ومحاربتها فى بلاد البلقان.. وتم له ذلك فأعلن الحرب على بريطانيا وروسيا وأنشأ حلفا آخر مع الدولة الفارسية ضد روسيا وبريطانيا (١٨٠٧ - ١٨٠٩) لكن هذين الحلفين

سـرعان ما تفككا عندما عادت فرنســا وتحالفت مع روســيا وحولت انتباهها إلى أوروبا من جديد..

وعقد نابليون عزمه على القضاء على تجارة انجلترا فى أوروبا فشـن عليها حربًا اقتصادية وجعل من نفســه امبراطورا على فرنســا وإيطاليا واتحــاد الراين.. واختــار أخاه (جـيروم) ملكا على هولنــدا.. وأخاه (جوزيف) ملكا على نابولى.. ثم استولى على البرتغال وأسبانيا.. وتزوج من مارى لويزة ابنة الامبراطور فرنسيس..

وبدا كأنه شـيد امبراطورية واســعة ثابتة الأركان.. تشـبع أطماعه الكبيرة.. ويدخل حرب شـبه الجزيــرة (١٨٠٨ - ١٨١٠) ليظهر أول شــرخ فى هذا البناء الشـامخ حيث كلفته هذه الحــرب الكثير.. وهلك معظم جيشه.. فعاد إلى باريس لكى يجند جيشا آخر..

ويتكون تحالف دولى جديد ضده من روسيا وبروسيا وانجلترا والسويد والنمســا ويهزم نابليون فى معركة الأمم.. وظل الحلفاء يطاردونه حتى فرنســا وبهذا تنازل عن العرش ونفى إلى ألبا.. ثم يعود إلى فرنســا عام ١٨١٥ ويعاود الحرب من جديد ليهزم فى (ووترلو) ويســلم نفســه إلى بريطانيا.

وتنفيــه بريطانيا إلى جزيرة (ســانت هيلانة) فــى المحيط الهندى حيث قضى سنوات نفيه يكتب مذكراته..

ويموت نابليون فى ٥ مايو عام ١٨٢١ بداء السرطان..

وهكــذا طويت صفحة عريضة من صفحــات التاريخ.. حاول نابليون بونابرت أن يجعلها صفحة مشرفة في كل سطورها..

لقد ساقته أطماعه كما ساقت من قبل الإسكندر الأكبر.. لكن نابليون كان يتمتع بذكاء وعلم ربما أكثر من الإسكندر.. وكان اهتمامه بالاستيلاء على العالم مزيجًا من الطمع والإصلاح معا..

وقد استطاع نابليون فيغزواته المختلفة أن يغير من خريطة العالم أكثر من مرة.. ويعيد رسم حدود دوله بما يتناسب مع منطق القوة والغلبة..

وطــوال اثنتين وأربعين ســنة.. هي كل ســنوات عمره.. أحدث في جسد التاريخ مجرى خاصًا.. فاض على شواطئ دول العالم كلها.. وبهذا يمكننا أن نؤكد أنه كان أحد صناع التاريخ..



هانز كريستيان أندرسون.. الرجل الذى أسعد أطفال العالم

بعد وفاة والده ترك الفتى وهو فى الرابعة عشرة دراسته لكى يعمل من أجل حياة أسرته.. فتنقل بين عدد من الأعمال البسيطة القليلة الأجر.. فعمل خياطا.. ثم عمل فى مصنع سجائر.. وهاهو يفكر فى أمر آخر..

إن الله وهبه قدرا كبيرا من الذكاء وسعة الخيال.. وهاهو يرحل فجأة إلى كوبنهاجن طمعا فى ممارسة هوايته فى الغناء والرقص والتمثيل.. لكنه ووجه بالرفض والطرد.. لكنه أخذ يعمل على تطوير إمكاناته حتى نجح فى العمل سوبرانو فى المسرح الملكى..

كان القدر يخبئ له طريقا آخر تماما..

إن أسرته متواضعة.. وحينما ولد هانز كريستيان أندرسون عام ١٨٠٥ كان أبوه يعمل صانعا للأحذية.. أما أمه فكانت تعمل على تنظيف ملابس الأغنياء فى البيوت الكبيرة.. وكانت له شقيقة واحدة من أمه فقط.

وتوالت على الطفل المصائب متتالية.. فقد توفى والده مبكرا.. أما أمه فقد ماتت أيضا وهو فى الثامنة والعشرين من عمره..

عرف هانــز منذ طفولته بحبه للعب والفــن.. وحينما فطن أبوه إلى ذلك كان يصحبه إلى المســرح.. ويقرأ عليه القصص والمســرحيات.. كما كانت أمه تروى له العديد من قصص الأساطير والخرافات القديمة.

وقــد نتعجب لهذه الأســرة الفقيرة التــى تهتم بالقــراءة وتثقيف أولادها.. وهذا أمر كان سائدا فى الدانمرك آنذاك..

وكان الأب يحاول أن يقنع ولده أنه سليل النبلاء..

لكــن الحقيقــة أن الأســرة كانــت لها علاقــات بالأســرة الحاكمة الدانمركية.. لكنها كانت علاقــات عمل.. فالأب يصنع لها الأحذية.. وربما كانت الأم تخدم أفرادها كذلك..

وحينمــا التحق هانز بالمســرح الملكى.. كان ينــال محبة زملائه.. وكانــوا يلقبونه بالشــاعر ممــا جعله يجتهد فى تحقيق هــذا اللقب.. ويهتم بالكتابة..

وبالمصادفة التقى هانز بملك الدانمرك (جوناس كولن) الذى أبدى اهتماما بالفتى الغريب وأمر بإلحاقه بالمدرسة وتحمل نفقات الدراسة عنه..

وفى عام ١٨٢٢ نشر أندرسون أولى رواياته (شبح قبر بالناتوك) وبالرغم من أنه كان بطيئا فى مدرســته.. فقد عنى بــه أكثر من غيره.. واضطر إلى العيش فى منزل ناظر المدرسة الذى أساء معاملته بحجة صقل شخصيته.

لم يكن هانز فتى عاديا لكن ذهنه كان مشغولا بأمور أخرى.. ولهذا وجدناه يصنع لنفســه مســرحا صغيرا (لعبته) ويمضــى وقته فى صنع ثيابا لدماه التى يصنعها بنفسه.. كما كان مشغوفا بمسرحيات شكسبير وهولبرج وكان يحفظها ويرويها مستخدما عرائسه الخشبية ممثلين..

ويحاول هانز أن يكتب الشعر والمسرح.. ولكن باءت تلك المحاولات بالفشل ولم تلق أى إعجاب من أحد..

ويحاول مرة أخرى كتابة القصص المستوحاة من الحكايات الشعبية القديمة.. وينجح فى إنتاج إحدى مسرحياته الموسيقية (فانتازى) على المسرح الملكى عام ١٨٢٩.

لكنه كان دائما ما يواجه بالنقد اللاذع لأى نص يكتبه.. وحلت به حالة اكتئاب شديدة.. تفجرت عن تغيير مسار قلمه وفكره..

كان ذلك فى عام ١٨٣٥ حينما بدأ ينشر للأطفال قصص الحوريات.. ولاقت نجاحا كبيرا..

وحينما سئل لماذا بدأت تتفرغ للأطفال قال: لقد سئمت نقد الكبار.. بدأ هانز بنشر أربع قصص للأطفال هى: القداحة - الأميرة الحقيقية - زهور صغيرة - البطة القبيحة.. ثم توالت أعماله الساحرة الممتعة للأطفال..

ففى حكاية (عروس البحر الصغيرة) نجد عروس البحر تعيش فى قصر أبيها مع إخوتها تحت الماء.. وتقع فى غرام مع البشر وتتمنى أن تتحول إلى إنسانة كى تتزوجه.. ولكنه يتزوج أخرى.. وتحاول الساحرات إقناعها بقتله لكنها ترفض ذلك.. وتهبط إلى البحر فى هدوء..

وتحكى (القداحة) عن جندى وساحرة.. حيث يهبط الجندى من تاج إحدى الأشجار خلال جذعها إلى قصر منيف أسفلها فوجد قداحة تلبى رغباته حتى صار ثريا.. وبدد ثروته وحكم عليه بالإعدام.. ولكن القداحة تنجح فى إنقاذه من ورطته..

وتحكـــى (الحذاء الأحمر) عن فتاة فقــيرة كانت تعمل خادمة عند أحد النبلاء.. فأعطاها رغيفا وطلب منها أن تزور والديها فى بلدتها.. ولبســت الفتــاة حــذاء جميلا ولكــن الأرض الموحلة جعلتها تضــع الرغيف فى الوحل كــى تطأه للمحافظة على جمال حذائها.. وفى نظير ذلك لقنتها الحياة دروسا قاسية على إهانة نعمة من نعم الله على الإنسان..

أمــا حكاية (قبقاب القــدر) فتتضمن عدة أحــداث ومواقف حرجة طريفة.. فالقبقاب يلبى أول رغبة يتمناها من يلبسه.. فيلبسه المستشار ويتمنى أن يعود به إلى القرن الخامس عشــر عصر الملك هانز الذهبى.. ثم يلبســه الحارس الذى يتمنى أن يكون ضابطا.. ويخيب أمله فى هذه الأمنية.. ثم يلبسه أمين الشرطة ويتمنى أن يكون شاعرا فتتحقق أمنيته ويصير شــاعرا.. ويلبســه طالب فى القداســة الإلهية ويتمنى أن يزور إيطاليا فيزورها.. وقد استطاع هانز أندرسون فى هذه الحكاية أن يصف لهفة كل متمن على أمنيته وكأنه يحلم ويتمنى أن يتجسد حلمه..

أمــا قصة (ملابس الإمبراطور الجديدة) فهى قصة لطيفة حقا تحكى عــن إمبراطــور أراد أن يلبس ملابــس جديدة لم يلبســها أحد غيره.. فتســابق الخياطون من جميع بقاع الإمبراطوريــة يعرضون عليه أنواع الأقمشــة الفاخرة مــن ذهب وفضة مطرزة فريدة تفــوق الخيال.. لكنه كان يرفضها جميعا.. لأنها لا تختلف كثيرا عن الملابس التى يلبســها الناس.. وظل الحال كما هو حتى جاءه رجل يعرض عليه قماشا سحريا لا يراه إلا الأذكياء.. أما الأغبياء فلا يستطيعون رؤيته.. وقبل الملك هذا

العــرض وجاء الرجل بمغزله وظل يعمــل فى القصر فى مكان منعزل.. وكان يدخل عليه الوزراء والحاشية فلا يرون شيئا لكنهم لم يجرؤا على التصريح بذلك حتى لا يتهموا بأنهم أغبياء.. حتى الإمبراطور نفسه.. فقد دخل عليه ولم ير شيئا على المغزل.. لكنه لم يفصح عن ذلك بل على العكس أبدى إعجابه بالخيوط السحرية التى لا يراها..

ويعلن الرجل انتهاءه مــن غزل القماش ويقرر الإمبراطور أن يلبس حلته الجديدة التى لا يراها إلا الأذكياء ويسير بها فى موكب كبير فى شــوارع العاصمة.. وتحتشد الجماهير لمشاهدة الحلة المعجزة.. وتتعالى صيحــات النفاق والإعجاب على جانبى الطريــق.. وفجأة يصرخ طفل: يا إلهى إن الإمبراطور يسير عاريا..

وســرعان ما وجد صراخ الطفل صداه.. فتصاعدت أصوات الجماهير لتكرر صيحات الطفل بأن الامبراطور عار لا يلبس شــيئا.. وتنكشــف الخدعة الكبرى..

وقــد قصد أندرســون من هــذه القصة إبراز شــخصية الطفل الذى لا يعرف الرياء إلى قلبه سبيلا..

استمر أندرســون فى الكتابة للأطفال مستخدما فيها عناصر الخيال والمتعة والمعرفة والقيم.. وقد انتشــرت فى العالم كله وترجمت إلى نحو مائة لغة.. وهى قصص توافرت فيهــا عناصر الخلود.. فالفن سمتها.. والشــعر روحها.. ورحابة الخيال جوها العام.. والأســاطير الشعبية مصدرها.. وخبرة الحياة نبضها.. وكان أندرسون يكتب القصة ويرسمها بنفسه حتى يضفى عليها ما يراه من الخيال والمتعة..

وفى عام ١٨٣١ زار أندرســون ألمانيا فألهمته كثيرا فى أدب الرحلات فى السويد وإسبانيا وإيطاليا والبرتغال والشرق الأوسط.. وذاع صيته بعد نشــر (حكايات الحوريــات) التى كتبها بين عامــى ١٨٣٥ و١٨٧٢.وفى ألمانيا وفرنسا يلتقى أندرسون عددا كبيرا من الكتاب والفنانين الرواد وفى انجلترا قوبل بحفاوة بالغة فى كل مكان وقابل عددا من الكتاب المشــاهير من بينهم تشارلز ديكنز الذى بقى معه خمسة أسابيع فى بيته..

وقد قصد أندرســون إلى تقديم أعماله للأطفال والكبار معا.. متضمنة المشــاعر والأفكار التى تتجاوز الفهم المباشر للطفل.. وفى الوقت نفسه يتردد صداها فى عقله..

لهــذا جاءت قصصه تترجم عن عالم ســحرى رائــع غريب.. مملوء بالحركة والصور والرغبة فى التفاعل والشوق إلى السعادة المفقودة ليؤكد لنا إمكان الاستمتاع بلحظات السعادة..

وكان أندرسون يصدر كل عام كتابا جديدا حتى وصل إجمالى ما أبدعه للطفل نحو ١٦٨ كتابا..

وفى الرابع من أغسطس عام ١٨٧٥ يرحل أندرسون عن عالم الأحياء..

مــات دون أن يتزوج رغم أنه أحب ثلاث فتيــات لم يبادلنه الحب..

سبعون عاما من المعاناة والإبداع عاشها هذا الرجل ليسعد أطفال العالم..

وترصد ملكة الدانمرك كل عامين جائزة أندرســون لأدب الأطفال..

والتى تمنح للمتميزين فى مجال أدب الأطفال..

وتعـد هذه الجائزة مـن الجوائز المهمة فى هـذا المجال.. وتعرف بكونها واحدة من أرفع الجوائز والتى يتم منحها لمؤلف ورسام كل عامين وذلك فى احتفال رسمى تقوم فيه الملكة بمنح الجوائز للفائزين..

ومازالت حكايات أندرسـون تسـعد الأطفال فـى كل مكان من عالمنا المعاصر.. بل صارت مصدرا مهما من مصادر أدب الأطفال.. اسـتطاعت أن تنمى خيال الطفل.. وتغرس فيه حب المعرفة..



فلورانس نايتنجال.. ملاك الرحمة

كانت الفتاة ابنة الثامنة عشرة.. تتجول فى حديقة قصر أبيها مع عدد من أصدقائها.. وفجأة توقفت ونظرت إلى تلك النوافذ المتدة أمامها فى القصر.. وقالت لهم:

- أتدرون بماذا أفكر الآن.؟

سادت فترة صمت قصيرة.. وبدا على الفتاة أنها فى عالم آخر.. وأنها تُلقَن ما تريد أن تقول.. وتابعت:

كلما أرى هذه الغرف الجميلة أفكر كيف أجعل منها مستشفى كبيرا.. ويشغل بالى فرشها وتهيئتها.. ومد أسرتها لكى يستريح فيها المرضى ويستفيدون من الهواء والنور.. والرفاهية..

وكأنه هدف أفنت الفتاة حياتها من أجل تحقيقه..

إنها المرأة العظيمة التى كرست عمرها لخدمة الإنسانية.. ورفعت من شأن مهنة (التمريض) منذ كانت شابة.. عازفة عن كل متع الحياة حتى لا تحول بينها وبين تحقيق أهدافها..

فى عام ١٨٢٠ ولدت فلورانس نايتنجال فى مدينة فلورانس بإيطاليا.. وكما نرى فقد سميت باسم المدينة.. وكان أبوها (وليام شور) أحد أثرياء إيطاليا المشهورين..

فتحت الصبيـــة عينيها على هذا الترف المتســع.. والثراء الكبير.. وتعلمت اللغات الإيطالية والفرنسية والألمانية.. كما درست الرياضيات والموســيقى والأدب مما يؤهلها لكى تصبح ســيدة من سيدات المجتمع الراقــى فى البيئة الإيطالية.. بالإضافــة إلى تمتعها بخفة روح وجمال رقيــق.. وكما هى الحال فـــى طبقتها الاجتماعية.. طافــت بلاد أوربا وحضرت حفلات الموسيقى والأوبرا.. وتعرفت على المتاحف والآثار..

وتلاحظ الأســرة أن ابنتها منذ حددت هدفها.. تكثر من قراءة أنواع مــن الكتــب.. فهاهو أبوها يحضرلهــا بعض الكتب الأدبيــة.. لكنها تضعها جانبا.. وتســتغرق فى قراءة مجموعة التقارير الســنوية لمعهد (فليدنــر) الذى كان المعهد الأول من نوعه فى ألمانيا لإعداد المرضات.. وقد زارته الفتاة فى أثناء جولتها الأوروبية.. وأقامت فيه أســبوعين.. وكان رئيس المعهد مندهشا حين طلبت منه الإقامة فى المعهد والتدريب علــى التمريض لأنه يدرك أنها من طبقة أرســتقراطية.. لكنها أصرت على التدريب فقال لها:

- إذا كنــت ترغبين حقا فى التدريب لدينــا.. فعليك أن تفعلى كل ما نطلبه منك بدقة..

فقالت: أرغب فى ذلك..

قال لها الرئيس: تبدئى أولا بمسح أرض الممرات..

فأجابت بكل تواضع وثقة:

- سأفعل يا سيدى.. وعليك أن تختبرنى..

وخلال الأسبوعين ضربت فلورانس المثل فى التمريض وتضميد الجروح.

وبدأت الفتـاة فى تنفيذ خطتها.. فهجـرت دار أبيها حيث الغنى والترف والثـراء وأصرت على ذلك.. فاتهمت من أسـرتها بالجنون.. ولكنهـا لم تلق بالا لهـذه التهمة.. ولم تتردد فى أداء رسـالتها.. بل كانت تشعر بأن الله حمّلها رسالة سامية وعليها أن تقوم بها..

وفى سـن العشـرين أعلنت إنها لا تريد الزواج لأنها أمام عمل شاق لا يجعلها تغفل عنه لحظة من حياتها..

بـل رفضت أن تحضر تلك المناسـبات الاجتماعية والسـهرات التى كانت تقام فى قصور الأسـر الغنية والتى كانت أسـرتها تدعى إليها.. ونظـرت إلى هذه المناسـبات على أنها نوع من النفـاق الاجتماعى الذى يصرف الإنسـان عن الرسـالة السـامية.. ومن ثم بدأت تعيش بالشكل الذى ترضاه لنفسها..

أدركت الفتـاة أنها يجب أن تتعرف إلى هؤلاء البشـر من الطبقات الأخرى.. فى سـاعات ألمهم.. وتقدم لهم العون والمساعدة.. وتعيد لهم البسمة والأمل..

إنهـا تتذكر طفولتها المرفهة التى كانت تلعب فيها بالدمى.. لكنها الآن تريد أن تصلح من نفسها وأن تفعل شيئا آخر يفيد البشر..

كتبـت مرة تقـول: إن عقلى منهمك بآلام الإنسـانية.. فهى تحيط بـى من كل جانب.. مع أنها تبدو بعيدة عنى.. وأكاد لا أرى إلا بشـرا منهوكى القوى بتأثير الهموم والأمراض النفسية..

وتسافر إلى انجلترا لدراسة فن التمريض وإصلاح المستشفيات وإنشاء معاهد تدريب للفتيات للقيام بهذا العمل العظيم..

وقد كان التمريض فى انجلترا موقوفا على الراهبات فى ذلك الوقت.. وأيضا على فئة من النساء اللواتى كن يقبض عليهن رجال الشرطة فى الشوارع ويوجهن إلى التمريض..

ومن ثم ظن أهلها أنها سوف تدخل هذه الطائفة من النساء المنحرفات ورأوا فى هذا العمل وضاعة واحتقارا..

ورأى والداها أن تزور ابنتهما مصرا عام ١٨٤٩ فربما تؤثر هذه الرحلة فى تبدل شخصيتها وعودتها إلى الحياة التى تستحقها.. من وجهة نظرهما ففعلت.. لكنها عادت أكثر إيمانا برسالتها.. وقامت برحلة إلى باريس عام ١٨٥٣ للتعرف إلى مؤسسات التمريض هناك.. ومنها إلى أيرلندا لممارسة التمريض فى المستشفيات..

وفى لندن تنشئ فلورانس (مستشفى النساء العاجزات) وأدارته بنفسها.. وكان المستشفى مثلًا ونموذجا لمثل هذه المؤسسات الصحية.

وفى الرابعة والثلاثين من عمرها (١٨٥٤) وقعت حرب القرم.. وتوالت الأنباء تصف حالات المستشفيات العسكرية وخلوها من الأدوية والضمادات والمرضات.

وضج الرأى العام فى لندن.. وكتب الكاردينالماننج فى جريدة التايمز يتساءل: لم لا تتطوع فلورانس نايتنجال لهذه الخدمة؟

ولم يكن يدرى أن الفتاة سبقت نداءه إلى ميادين القتال.. حيث كونت مجموعــة من ثمان وثلاثين ممرضة وأســرعت بهن إلى منطقة الأناضول وكانت قد كتبت إلى وزير الحربية السير سيدنى هربرت تقول:

- لقد تأســست هنا بعثة صغيرة من الممرضات للخدمة فى مستشفى ســكوتارى بالأناضول.. وكلفت أنا برياســتها.. ونحن نتعهد بنفقات رحلتنــا وطعامنا ومأوانــا ونعفى الدولة من هذه النفقــات.. فأرجو أن توافقوا على تطوعنا.. وأن تطمئنوا وزارة الحربية.. بأننى لم أعد سيدة المجتمع التى تظنونها.. بل صرت ممرضة متطوعة..

وتوافق وزارة الحربية.. وتشترى من مالها الخاص العقاقير وبعض الإسعافات الأولية.

وحينما وصلت إلى ســكوتارى بعد رحلة بحرية شاقة كانت مجهدة وشبه مريضة لكنها قدوة حسنة لغيرها من الممرضات..

أما الجنود الجرحى.. فقد وجدوا فيها الملاك الرحيم.. والأم الرءوم فارتفعــت معنوياتهم.. وهانت عليهم جراحهم.. وعاد الأمل بالشــفاء إلى نفوسهم.

ويستجيب لدعوتها الكثير من رجال الأعمال والأطباء متبرعين بما يملكون من مال وطاقة من أجل علاج الجرحى والترفيه عنهم..

وكانــت فلورانس كريمــة على المرضى لدرجة البــذخ.. فقد انهالت عليها التبرعات.. فأنفقت على المرضى بلا حساب..

ويلاحظ ذلك سفير انجلترا فى تركيا فاستاء من كرمها وقال:

- يا ليتها تنفق هذا المال على عمل لائق.. كبناء كنيسة فى اسطنبول.

فلما سمع أحد الجنود الجرحى ذلك قال:

- إن هذا المستشفى هو كنيستنا.. والآنسة نايتنجال هى الملاك الرحيم.. والرسول الهادى..

وأطلقوا عليها (السيدة ذات المصباح) فقد كانت تمسك مصباحها ليلا وتمر على المرضى لتطمئن عليهم واحدا واحدا..

ولاقت فلورانس صعوبات كثيرة وأحقادا عديدة على ممارسة مهنتها والقيام برسالتها.. لكنها ظلت صامدة لا تتزعزع.. واستطاعت أن تضع قواعد جديدة لرعاية الجنود والترفيه عنهم.

وتنتهى حرب القرم عام ١٨٥٦.. وتضع انجلترا بارجة حربية تحت تصرفها وقائدا لمرافقتها فى طريق عودتها.. لكنها أبت أن تغادر تركيا قبل أن يغادرها آخر جندى جريح.. وفضلت أن تعود دون مراسم ولا احتفالات.

ويستمر نضال فلورانس من أجل رفع شأن مهنة التمريض فأسست عام ١٨٥٧ مدرسة خاصة لتدريب المرضات على نهج علمى صحيح.. وعرفت هذه المؤسسة باسم (دار نايتنجال).. ثم تأسست مدارس مشابهة نموذجية فى كل مكان..

وفى عام ١٨٥٨ نشرت كتابها (مذكرات فى التمريض) نبه العقول إلى ما فى هذه المهنة الشريفة من رقى ورحمة وخير وإصلاح..

ولهـا أيضـا كتـاب (ملاحظـات حـول المستشـفيات) وكتـاب (حول التمريض) وظلت تطالب ببناء المستشفيات العسكرية النموذجية حتى تم لها ذلك وأهدتها بلادها وسـام الاستحقاق عام ١٩٠٧ وهى فى السابعة والثمانين من عمرها..

وفى آخر سنوات حياتها أصبحت مقعدة.. وصار بيتها مقصد العظماء والساسـة والقادة والأدباء.. أما الشعب فقد كان يقدسها لما قدمته له من رسالة سامية..

وقبيل موتها بأيام.. سألها أحد أصدقائها بينما كانت فى شبه غيبوبة:

- هل تدركين أين أنت الآن..

فأجابـت: أجل.. إننى أتطلـع إلى محراب الجرحى.. وأسـعى إلى الوصول إليه.. وسوف أدافع عن قضيتهم ما دمت على قيد الحياة..

وترحل فلورانس فى عام ١٩١٠ بعد أن صنعت لفن التمريض تاريخا وأرسـت له القواعد العلميـة.. ورفعته من موضعـه المتدنى إلى مكانة رفيعة ظلت وستظل على مدى الأيام..

□□□

لويس باستير.. قاهر الميكروبات

منذ ما يقرب من قرن ونصف قرن.. وقف طبيب مشهور يلقى محاضرة عن حمى النفاس فى الأكاديمية الطبية بباريس.. وكانت تلك الحمى آنذاك تودى بحياة كثير من الأمهات..

وأخذ الطبيب يتحدث عن أعراض هذه الحمى شارحًا أسبابها.. ولكن حديثه هذا لم يعجب أحد الشباب الحاضرين الذى قاطعه بقوله:

– سيدى.. ليس السبب فى حمى النفاس هو ما ذكرت.. ولكنه الميكروب الذى يسبب هذا المرض.. وهو الذى ينقل العدوى من المرضى إلى الأصحاء.

وهنا رد عليه الطبيب المحاضر:

– قد تكون محقًا يا بنى فيما تقول.. ولكنك قطعًا لا تعرف هذا الميكروب.

ثم أراد الطبيب أن يواصل محاضرته.. غير أن الشاب قام من مكانه وتوجه إلى السبورة خلف الطبيب ثم رسم عليها حلقات تشبه السلسلة ثم صاح قائلا:

– هذا هو شكل الميكروب يا سيدى؟

كان ذلك الشاب النابغة هو لويس باستير الذى ولد عام ١٨٢٢ لأب يعمل بدبغ الجلود.. ومن هناك كانت رائحة الجلد تصاحبه أين يذهب..

وفى أثناء دراسته فى مدرسة النورمال بباريس كتب لوالده يقول: لو أننى استطعت فقط أن استنشق نسمة من رائحة المدبغة فمن المؤكد أننى سأشفى فى الحال.!

وكان فى مدرسته مثالا للتفوق والذكاء والمثابرة.. وقال عنه مدرسوه إنه كان أصغر التلاميذ.. ولديه حب استطلاع لا يتوقف.. ودائما ما يطرح الأسئلة حتى إن أحد المدرسين نبهه بقوله: دعنى أذكرك يا بنى بأن مهمة التلميذ ليست هى إلقاء الأسئلة.. بل الإجابة عنها..

وحينما حصل على درجة بكالوريوس العلوم.. كان تقديره فى الكيمياء مقبولا.. فانزعج والده لهذا التقدير.. لكن الابن قال لوالده: أرجوك يا أبى أن تتمسك بالصبر وأن تثق بى.. فإننى سأكون أكثر نجاحا كلما سرت فى طريقى.. تنبأ الفتى لنفسه بالتفوق والشهرة.. وكان يؤمن منذ صغره بأن النجاح له طريق صعب.. ومن ثم يتطلب مزيدا من العمل والصبر والعزيمة..

واستطاع لويس باستير بإصراره وعزيمته أن ينال درجة الدكتوراه فى الكيمياء ثم التحق بجامعة ستراسبورج كأستاذ فى الكيمياء وهو فى السابعة والعشرين من عمره.. مما أتاح له البحث فى حلمه القديم وهو اكتشاف الميكروبات.. ومن ثم علم الأحياء طمعا فى معرفة السر الغامض.. سر الحياة والموت لكن أساتذته نصحوه بالابتعاد عن هذه المشكلة.

إن لويس يدرك جهود العلماء الذين سبقوه فى هذا الأمر.. قد قال أرسطو مثلا: إن الحياة يمكن أن تتولد عن طريق تجفيف جسم رطب أو ترطيب جسم جاف..

ويقرر فرجيل: أن النحل يمكنه أن يتخلق من جثة ثور ميت..

لكن باستير لم يسلم بما قاله السابقون عليه.. بل شرع في إجراء تجاربه بعيدا عن هذه الخرافات والمسلمات..

كيف له أن يكتشف طريقة لتحصين الكائنات الحية ضد الأمراض المختلفة؟

وبعد التجارب والأبحاث التي وجهت بالنقد والسخرية قرر باستير أن فكرته تلك تتحقق عن طريق حقن الجسم بنوع ضعيف من ميكروبات هذه الأمراض مما يسبب مناعة وحصانة فترة من الوقت..

وقد استعان باستير بثلاثة من الأطباء الشبان مثله..

وأخذ باستير بعد ذلك يستحضر اللقاحات المختلفة.. وراوده الأمل في تجنيب البشرية خطر عدوى هذه الأمراض بطريقة التطعيم..

ومما يؤخذ على باستير أنه كان يتمتع بفورة الشباب وحماسته وعزيمته فكان يسرع إلى إذاعة نتائج أبحاثه وتجاربه ربما قبل أن يتأكد من صحتها وحدث أن أدى ذلك إلى المشاجرة والتماسك بالأيدى بينه وبين أحد العلماء..

ولعل أروع اللحظات التي كانت في حياة العالم الشاب يوم استطاع أن يثبت جدوى لقاحه.. وذلك عندما تصدى له أحد الأطباء البيطريين متحديا أن ينقذ باستير بطريقته آلاف الرءوس من الماشية التي كانت تموت سنويا نتيجة وباء الجمرة الخبيثة..

وقبل باستير التحدى.. وظل يجرى تجاربه لتطعيم الماشية أمام جمهور كبير من العلماء وعامة الشعب..

وكم كانت سعادته حينما نجحت التجربة.. وشفيت الماشية.. بفضل هذا التطعيم بالميكروب.. وكانت معجزة من معجزات العلم..

وانهالت على باستير طلبات المزارعين كل يطلب منه مصلا لماشيته وذاع صيته فى البلاد..

ثم تفرغ باستير بعد ذلك لميكروب الكلب واستمرت أبحاثه ثلاث سنوات استطاع بعدها أن يحقق نتائج باهرة حينما استحضر مصلا يقى الناس شر هذا الداء..

كان باستير لا يذوق النوم إلا قليلا.. فقد شغلته تجاربه وأبحاثه عن الاستمتاع بمباهج الحياة..

وهاهو يتجه مرة أخرى لدراسة ظاهرة التخمر فأثبت بالتجربة العلمية أن السبب فى التخمر يعود إلى تلك الكائنات الدقيقة الميكروبية.. والتى تسبب أضرارا للإنسان والحيوان.

ودعا إلى استخدام مضادات التعفن لوقاية الإنسان من هذه الأمراض.

وتنسب إلى باستير طريقة (البسترة) والتى تتمثل فى غلى اللبن إلى درجة حرارة معينة (حوالى ٦٠°) ثم تبريده فجأة.. وبهذا يمكن القضاء على البكتيريا التى تلوث اللبن..

ومنذ عصر باستير والوفيات فى العالم تتناقص.. ويعود ذلك إلى فكرة اللقاحات والأمصال التى حققها لويس باستير والتى ساهمت إلى حد كبير فى تحصين الإنسان ضد المرض والموت..

وفى حياة باستير قصة حب شديدة الغرابة.. فبعد وصوله إلى جامعة ستراسبورج أعجب بابنة مدير الجامعة.. وأرسل إلى أبيها يقول:

- إن والــدى دابغ جلود فى (آربوا) وأخواتى الثلاث يســاعدنه فى عمله.. كما يقمن بشئون البيت.. وهن يشغلن مركز والدتى التى فقدناها من شهور قليلة.. ونحن نعيش فى حالة ميسورة ولكننا لسنا أثرياء..

أما أنا فقد تخليت لأخواتى عن نصيبى فى الميراث الذى سوف يؤول إلى فيمــا بعد.. ومن ثم فإننى لا أمتلك أية ثروة.. لكن جل ما أملكه هو صحتى الجيدة وشــجاعتى الفائقة وعملى فى الجامعة.. وسوف أكرس حياتــى للبحوث الكيماوية.. واسمحــوا لى أن أتقدم لكم بهذه المؤهلات المتواضعة لطلب يد كريمتكم!

تعجــب مديــر الجامعة مــن خطاب باســتير لكنه - باعتبــاره أبا حكيما - أحال الرســالة إلى ابنته لتبدى رأيها.. لكنها رفضت عرضه.. ويظل باستير يلح على أبيها وأمها دون جدوى..

ثم كتب إلى الفتاة نفسها يقول:

- كل ما أرجوه منك يا آنســتى هو ألا تتعجلى فى الحكم على.. فقد تكونين مخطئة....

وتمــت الموافقة على الزواج.. وحدد يــوم ٢٩ مايو عام ١٨٤٩ موعدا للزفاف..

لكن ما حدث فى ذلك اليوم لم يكن فى الحسبان..

لقد كانت العروس ووالدها والمدعوون والقســيس مســتعدين جميعا لإتمام مراسم الزفاف فى الكنيسة.. ولكن أين العريس؟

كان باستير مشغولا فى معمله..

أســرع إليه أحد أصدقائــه.. ليجده منكفئا فــوق أنابيب الاختبار..

فصاح به: هل نسيت يوم زفافك يا لويس..

أجاب: كلا.. إننى أتمم عملى أيها الأحمق.. هل تنتظر منى أن أترك العمل وأذهب معك وأنا مازلت فى منتصف التجربة..

لكـن صديقـه نجح أخيرا فـى انتزاعه من عمله والذهـاب به لعقد القـران.. وبالرغـم مـن ذلك فقـد كانت حياتـه بعيدة عـن التعاطف لاستغراقه فى أبحاثه العلمية..

لقد كان الفتى طامعا فى خدمة الجنس البشرى بكل طاقته.. بل ظل طوال عمره الذى بلغ ثلاثة وسـبعين عامـا مخلصا للعلم والتجارب من أجل سعادة البشر..

وبالرغـم من أحقاد العلماء التى أحاطته طوال حياته.. فقد نال بعض التكريم العلمى مثل انتخابه فى أواخر سنواته عضوا فى المجمع العلمى.. وفوزه بصليب جوقة الشرف.. وبعدد من الأوسمة والشهادات..

وقـد اختارته حكومتـه ليمثل وطنه فى المؤتمر الـدولى للطب الذى عقـد فى لندن.. وهناك قوبل بعاصفة من التصفيق والهتاف.. ويعود إلى باريس ليحضر حفلا لتكريمه فى السوربون.. ويقوم خطيبا قائلا:

- أيها السـادة لتؤمنوا أن الأمم سـوف تتعلم أخيرا أن تتحد لا من أجل التدمير.. ولكن من أجل البقاء.. وأن المستقبل لن يكون أبدا للغزاة ولكن لمن يأخذون بيد البشر نحو المحبة والسلام..

وهكذا فعل باسـتير.. لقد اسـتطاع أن يصنع تاريخا حيا للبشـرية عن طريق الوقاية من الأمراض..

توماس أديسون.. عقل أضاء العالم

اعتاد التلميذ الصغير وأسـرته أن يتابعوا صبـاح كل يوم هذا الصوت المزعـج لصرير العجلات.. الذى تحدثـه عربة أحد البائعين.. وهو يدفعها أمامه محملة بالخضروات..

وكان البائع حريصا على الذهاب ببضاعته إلى السوق فى موعده الذى يضبط عليه سكان هذا الشارع أوقاتهم..

وفى أحد الأيام.. وفى الموعد نفســه.. اكتشـف سـكان الشارع عدم وجـود هذا الصرير المزعج.. وظنوا أن صاحـب العربة قد أصابه مكروه منعه من الذهاب إلى السوق ذلك الصباح..

ويذهـب بعض السـكان إلى بيت البائع ليطمئنـوا عليه.. فتخبرهم زوجته بأنه ذهب إلى السـوق كعادته.. ومرّ من شـارعهم كما يفعل كل صباح.. فسألوها:

- ولكننا لم نسمع صرير العربة؟.

قالت: وأنا أيضا لم أسمع.. بل إن زوجى أيضا تعجب وظن أن الأرواح الطيبة ذهبت بهذا الصرير المزعج..

لكن الأمر لم يكن فيه أرواح طيبة ولا أرواح شريرة..

كان الفتـى توماس أديسـون قـد أحضر قطعة كبيرة مـن الدهن من مطبخ والدته وشـحم بها عجلات العربة دون أن يخبر بذلك صاحبها.. فانقطع الصرير..

كانت تلك بداية الفتى لإعمال عقله فى كل شئ حوله..

ففى الحادى والعشرين من فبراير عام ١٨٤٧ ولد توماس أديسون فى ولاية أوهايو بشرق الولايات المتحدة..

وكان هو الابن السابع والأخير لصامويل ونانسى إليوت أديسون.. أما الأب فكان يعمل بالتجارة.. وتعمل الأم مدرسة مربية..

أمـا طفلنا فقد عانت أمه فى ولادته.. فقد كان رأسـه كبيرا بشـكل غير عادى فلاقت الأم صعوبة شـديدة.. ولم تكن العمليات القيصرية قد عرفت حتى تخلص الأم من هذه المعاناة..

وظـل كبر حجـم رأس الطفل يعوقه عن المشـى وهو طفـل.. ويفقده توازنـه أحيانا بل حار الأطباء فى علاج هذا العيب الخلقى.. وخشـى الأب أن يكـون ولده من البلهاء الذيـن يتصفون بكبر الرءوس.. وكثيرا ما كانت الأم تتشاجر مع جيرانها وهم يسخرون من ولدها الذى يرونه دائما يحنى رأسه الكبير فوق صدره.. ويطلقون عليه (أبو رأسين)..

ويبلغ توماس السادسـة من عمـره.. فيدخله أبوه المدرسـة.. لكنه لم يسـتمر بها.. ثم حدث أن أفلسـت تجارة والده فرحلت الأسـرة من بلدتها (ميلان) إلى بورت هورون بولاية ميتشجان شمالى ولاية أوهايو.. وفى أثناء هذه الرحلة.. أصيب الطفل بالحصبة..

ويتعثر الطفل فى مدرسته الجديدة.. ويلومه أبوه ويعنفه.. لكن الأم بدأت تتولى بنفسـها تعليمه وتربيته.. تحكى له.. وتشـرح له الكتب وتجيب عن أسئلته.. والطفل يستوعب بسرعة وذكاء..

وكانت الأم تدرس له كل شئ.. الأدب.. والتاريخ.. وسير العظماء.. وعلم النبات.. وعلم الحيوان.. والكيمياء..

وهاهو ينجذب نحو علم الكيمياء.. ويعلن ذلك لأمه التي سرعان ما شجعته على القراءة فى هذا العلم..

ويعرض توماس على أمه أن ينشئ فى بدروم البيت معملا بدائيا لتجاربه الطفولية.. فرحبت الأم بذلك وساعدته على شراء أدواته وقواريره.. ثم تتعرض تجارة أبيه مرة أخرى إلى الانهيار.. ووجد الطفل نفسه مطالبا بمساعدة الأسرة..

وهاهو الطفل ذو الثانية عشرة يخرج من البيت ليعمل بائعا للحلوى.. والسجائر وسمسارا لركاب القطارات.. وحمالا.. حتى يستقر أخيرا على بيع الصحف والمجلات فى محطة السكك الحديدية..

ثم حصل على تصريح ببيع الصحف داخل القطار ما بين (بورت هورون) و(دترويت) وهى مسافة تستغرق ثلاث ساعات..

فكر الفتى كيف يستغل هذه الساعات الطويلة فى عمل مفيد.. فاتفق مع كمسارى القطار أن يخصص له جانبا صغيرا من غرفة التدخين فى القطار لممارسة هوايته فى تجاربه الكيماوية.. فوافق الكمسارى على طلبه..

وكان كلما تحرك القطار دخل الفتى معمله الصغير.. وحينما يتوقف فى إحدى المحطات.. ترك معمله وأسرع ببيع صحفه ومجلاته.. وهكذا.. وتطلب هذا الأمر منه مغادرة بيته فى السابعة صباحا والعودة فى العاشرة مساءا.

وفى أحد الأيام كان أديسـون فـى معمله مع قواريره.. وفجأة توقف القطار فأحدث ذلك اندفاع قطعة من الفوسـفور ووقوعها على الأرض.. فاشتعلت وأحدثت ألسنة من اللهب..

ويحـاول الفتى إطفـاء النار.. ويقبل الكمسـارى.. ويفاجأ بما فعله أديسـون فيسـرع بمعاونته على إطفاء النار.. ويلطمـه على خده لطمة جعلتـه يشـعر بأثرها فى أذنه.. بـل ينزله فى أول محطـة للقطار.. ملقيا بأدواته خارج القطار..

ثم يقبل الكمسارى اعتذاره.. ويعود أديسون إلى عمله بائعا للصحف.. ومرة أخرى يجرى حاملا فوق صدره كمية من الصحف والمجلات ليلحق بالقطار الذى تحرك من المحطة.. فما كان من الكمسـارى إلا أن مد يده وأمسك بأذنيه ليساعده على الصعود.

بعدها أحس أديسون بضوضاء فى أذنيه.. ثم أصيب بالصمم الكامل..

تلك كانت مرحلة الطفولة لتوماس أديسـون.. لكنه لم يستسلم لهذه المحن.. بل شغل عقله وفكره لاختراع جديد..

فى السادسة عشرة من عمره (١٨٦٣) التحق توماس أديسون بوظيفة عامل للبرق.. وحفظ إشـارات موريس سريعا.. وتنقل بعد ذلك فى عدد من مكاتب البرق حتى استقر فى الشركة الخاصة للاتصالات بنيويورك براتب شهرى قدره ثلاثمائة دولار..

ويحكى أديسـون كيـف التحق بهذه الشـركة ونال هـذا المبلغ الشهرى فيقول:

– كنت أتردد على مقر الشركة لعلنى أجد فيها عملا.. وكانت الشركة تستخدم نظاما شاذا فى توصيل دوائر أجهزتها..

ومرة كنت أنتظر مقابلة رئيس الشركة عندما توقفت فجأة أجهزة البرق من حولى.. وساد الصمت.. وأقبل المهندسون يحاولون إصلاح العطل.. بلا جدوى.. فقمت من مكانى وعرضت عليهم أن أحاول مثلهم إصلاح العطل.. وأقبل رئيس الشركة.. فقال لى بعصبية: إبدأ فورا إذا كنت تستطيع..

وانطلقت وفحصت الأجهزة.. وعرفت مكان العلة.. فدارت الأجهزة مرة أخرى.. فأعجب بى رئيس الشركة ونلت الوظيفة..

وفى عامه الحادى والعشرين (١٨٦٨) ظهر أول اختراع لتوماس أديسون وهو (آلة تسجيل الأصوات).

وفى العام التالى طور أديسون آلة البرق.. وأدخل تحسينات على جهاز البرق الطابع..

ثم أقام معملا مطورا لأبحاثه العلمية مع فريق من الباحثين.. ومنه قام بتطوير الآلة الكاتبة.. واختراع مكبر الصوت الذى ساعد جراهام بل على تحسين اختراعه للتليفون..

ثم اخترع (الفونوغراف) عام ١٨٧٧..

وكان العالم حتى عام ١٨٧٨ يضئ الطرقات بمصابيح ذات أقواس من الفحم فأخذ أديسون يفكر فى اختراع أكثر فائدة وأقل خطورة.. واستطاع بعد تجارب طويلة اختراع المصباح الكهربائى الذى أضاء العالم..

ثم تتوالى اختراعاته: آلة التصوير السينمائى- آلة العرض - المولدات الكهربائيــة.. كما ســاهم فى اخــتراع الراديو والتليفزيون باكتشــافه موجات الأثير التى هى عماد هذه الأجهزة..

كمــا يعد توماس أديســون واضعا لأســاس صناعــة الإلكترونيات.. وبلغت اختراعاته أكثر من ألف اختراع.

ويحكي أن رئيس شركة البرق عرض عليه شراء مخترعاته التى تهم الشــركة وكان أديســون قد عزم على أن يطلب ألف دولار ثمنا لها.. ثم يهبط بالثمن إلى ستمائة إذا اضطر إلى ذلك..

لكنه حينما قابل الرئيس أحس بالرهبة وقال: لتعرض على الشركة مبلغ المال الذى تقدره وأنا أنظر لهذه المسألة..

فقــال الرئيس: تعرض الشــركة عليك ثمانيــة آلاف دولار.. فماذا أنت قائل؟

لم يصدق أديسون هذا المبلغ.. فتمالك.. ووافق قائلا: لا بأس!

وسئل أديسون يوما عن برنامجه اليومى.. فقال:

صحف الصباح.. ثم أتنــاول فطورى.. وأمضى إلى معملى فى الثامنة وأمامى فيه عمل طويل يســتغرق ساعات كثيرة.. وفى نهاية الليل أدون ما سوف أقوم به من أعمال فى اليوم التالى.. وهكذا..

نحــن إذن أمام صورة معجــزة لمخترع كبير لم يهتــم بمظهره يوما.. بل لم يجلس على كرسى الحلاقة قط.. ولم يعبأ بمسرات الحياة.. ومظاهر الترفيه فيهــا.. وكان الفريق الذى يعمل معه قد اعتاد على هذه الحياة..

وهاهو يدهمه المرض فى ضيعتــه الخاصة مات على أثره وهو فى الرابعة والثمانين من عمره وكان ذلك فى أكتوبر ١٩٣١.

وتقديرا لإســهاماته العلمية منحه الكونجــرس الأمريكى ميدالية ذهبيــة باسمه.. كما منحه الأســطول الأمريكى - تقديــرا لمخترعاته لسلاح البحرية - الميدالية الممتازة.. ذلك بالإضافة إلى عدد من الأوسمة والميداليات من ملوك ورؤساء العالم..

لقــد فجر أديســون بعقله كل غموض علمى.. فأضــاء العالم.. وكتب تاريخا مشرفا للعلم والعلماء..

□□□

تشيكوف.. نقلة إبداعية عالمية

وجه الفتى دعــوة إلى الكاتب الكبير مكســيم جوركــى لزيارته فى ضيعتــه.. فقبل الكاتب عــرض الطبيب الشــاب وذهب إليه.. ففوجئ به يعرض عليه ضيعته ويقول:

- لو كان لدى مال وفير لأقمت هنا مصحة للمدرسين الريفيين المرضى.. ولكنت شــيدت مبنى مضيئا.. مضيئا جدا.. بنوافذ كثيرة وأسقف عالية وزودته بمكتبة رائعة.. وأدوات موسيقية.. ومنحل.. ومزرعة خضراوات وبســتان فاكهة.. ونظمت محاضرات فى الزراعة.. والإرصاد.. فالمدرس يا صديقى بحاجة إلى معرفة كل شئ.. نعم كل شئ..

وأخــذ الفتى يتحدث ويطيل فى تخيلاته.. ثم أدرك أنه ثرثر كثيرا فتوقف فجأة وقال للكاتب الكبير:

- لقد ألقيت عليك مقالة افتتاحية كاملة من جريدة ليبرالية.. هيا.. سأسقيك شايا مكافأة على صبرك!

كان الفتى كثيرا ما يفعل ذلك.. يتحدث بحرارة وجدية وإخلاص.. ثم يسخر فجأة من نفســه ومن حديثه.. وكأنه يترجم غموض الحياة.. وسحرها معا..

ومرة سأله صديق: كيف تكتب قصصك القصيرة؟ فأجاب:

- انظر! - وتطلع إلى الطاولة وتناول أول شئ وقعت عليه عيناه وكانت منفضة سجائر - ووصفها أمامه وقال:

- إذا شئت يا صديقي قدمت لك غدا قصة عنوانها: المنفضة!

وأشرقت عيناه بمرح.. وبدا وكأنما بدأت تحوم فوق المنفضة شخصيات غير محددة.. ومواقف ومغامرات لم تتجسد في أشكال واضحة بعد.. ولكن المزاج الفكاهي كان حاضرا دائما..

نحن إذن في حضرة الطبيب المبدع: أنطوان تشيكوف الذي ولد في السابع عشر من يناير عام ١٨٦٠ في مدينة (تاغنروغ) الروسية التي تقع في أقصى شمال بحر آزوف..

وكان جده لأبيه رقيقا للسادة تشرتكوف.. أما أبوه فكان وكيلا لأملاك خاصة ثم تاجرا.. أما أمه أوجيني ياكوفليفا فهي تنتمي إلى أسرة عريقة في التجارة تعرف بأسرة موروزوف..

تلقى أنطون تشيكوف علومه الأولية في المدرسة اليونانية الابتدائية في مسقط رأسه.. ثم دخل المدرسة الثانوية.. وكان زملاؤه في المدرسة يلقبونه بـ (أنتوشا تشيخونته) وهذا اللقب يعني أنه كان هادئا صامتا شاحب اللون منطويا على نفسه.. وأنه هو نفسه كان يحس أنه شئ تافه في هذا الوجود.

كتب إلى أخيه ميخائيل مرة رسالة ختمها بقوله: اسلم لأخيك الضئيل.. فرد عليه أخوه معنفا إياه: لا يعجبني قولك: أخوك الضئيل.. أتدرى أمام من يجب أن تقر بضآلتك.. يجب أن تقر بها أمام الله..

أمام العقــل.. أمام الجمال والطبيعة وليس أمـــام الناس.. عليك ألا تقر أمامهم إلا بكرامتك.. فأنت شـــاب شـــريف والشـــريف يحترم نفســه.. وعليك أن تفرق بين الطاعة والإعتراف بالضآلة.

ويبدو أن أنتوشــا قد نبهتـــه هذه الكلمات إلى ضـــرورة الخروج من العزلة والانطواء.. إلى الشـــعور بالقيمة والكرامة.. بل أخذ يصدر مجلة للتلاميـــذ أسماها: الأرنب يحررها بنفســـه.. وينتشـــر فيها مداعباته وســـخرياته.. وهاهو يسهم أيضا في مسرح المدرسة ويكتب بنفسه هذه المسرحيات ويمثل فيها..

ويدخـــل كلية الطب في جامعة موســـكو وهو في التاســـعة عشـــرة من عمـــره لكنه بعد تخرجه يمـــارس المهنة فقد عـــرف كاتبا للقصص والمسرحيات وليس طبيبا..

وفي مذكرات أخيه يرجع عدم ممارسة أنطون للطب إلى أسباب عديدة منها أنه وصف يوما لأحد المرضى علاجا أخطأ في تحضير عقاقيره.. ولم يفطن لذلك الخطأ إلا في الليل.. فهب من فراشه مذعورا وأسرع إلى بيت المريض الذى كان على وشك تناول الجرعة الأولى قبل النوم.. ومنعه من تناولها.. وربما عمل تشـــيكوف فـــي دوائر صحية مختلفة لكنه ينحاز دائما إلى الأدب والذى تميز بالهزل والنكتة والسخرية..

وفي الرابعة والعشـــرين من عمره.. يضع ثلاث روايات هي: زهور متأخرة.. والجديلة الذهبية.. وفوز لا لزوم له..

وفـــي عام ١٨٨٥ وضع رســـالة فـــي التوجيه الأخلاقي لهـــا قيمتها لصدورهـــا عن فتـــى في الخامســـة والعشـــرين.. وضمت دســـتورا ظل

تشيكوف يطبقه طيلة حياته.. وهو يضم احترام الإنسان.. وعدم العبث بملك الغير.. وعدم الكذب.. والشجاعة في مواجهة المواقف.. وتقدير ذكاء البشر.. ومقاومة النفاق..

ويضع تشيكوف رواياته الصغيرة: بلا أبوه – ليس عبثا صاحت الدجاجة – الرواية الكبيرة.. ثم مسرحية: على الطريق العام والذى أوقفت طباعتها الرقابة الروسية لأنها تتناول طائفة من الحجاج والقساوسة وأبناء السبيل..

وفى عام ١٨٨٦ نشر أول مجموعة من قصصه تحت عنوان (قصص براقة) وفى العام التالى نشر مجموعة أخرى بعنوان (الشفق)..

تلك كانت ملامح المرحلة الأولى من عطاء الفتى والتى بلغت الألف قصة.. بشرت به علامة فارقة فى عالم القصة القصيرة.. وكان يقول:

– كنت أكتب القصص كما يكتب مخبرو الصحف أنباء الحرائق.. كنت أكتبها وأنا فى غمرة الذهول.. وكأنى فى حالة لاشعورية غير مهتم بالقارئ ولا بنفسى.. وغير ساع لأن أضع فى القصة أشكالا وأشخاصا كانت عزيزة على.. والله وحده يعلم ما الذى كان يحدو بى لأن أحتفظ بها وأدخرها..

كانت التلقائية إذن هى البساط السحرى الذى حمل تشيكوف إلى القارئ بكل مستوياته العقلية.. ومن ثم وصل هذا الكاتب الكبير إلى وجدان البشر أين كانوا دون حواجز ولا صعوبة.. ومن هنا كانت قيمته العالمية التى اعترف بها الجميع..

ثـم تبدأ مرحلته الثانية ويعترف به النقاد بأنه: من أنبه الكتاب.. وخشى تشيكوف على نفسه من نزعة الغرور.. فتوقف قليلا..

وحدث فى تلك الفترة أن أثار جماعة من الأدباء حديثا عن تشيكوف فى حضرة الكاتب الشـيخ جريجوريفتـش.. فقارنوه بكاتب أقل نبوغا منـه.. لكـن يفوقه فى (المبـدأ).. فتنمر الكاتب الشـيخ وقال: إن هذا الكاتب صاحب المبدأ لا يستحق أن يقبّل أثر برغوث يلسع تشيكوف..

هكذا كانت قيمة الكاتب المبدع تشيكوف لدى كتاب روسيا الكبار.. بدأ تشـيكوف يتنقل داخل وخارج روسـيا ليسـتمد مادته من البسطاء والنماذج البشرية المختلفة..

ويضع مسرحيته (النورس) عام١٨٩٦ لكنها باءت بالفشل بسبب تقليدية الممثلـين وعدم فهمهم للنص.. إلا أن هذا الفشـل دفعه من جديد إلى إبداع أعمالـه العظيمة: العـم فانيا ١٨٩٦ - الأخـوات الثلاث ١٩٠٠ - حديقة الكرز ١٩٠٣.. وعرض مسـرح موسكو هذه المسـرحيات ومعها مسرحية النورس من جديد ولاقت استحسانا كبيرا من النقاد والجمهور.

وكما فعل فى قصصه - كانت شخصيات مسرحياته من البسطاء يتحدثون عن أبسط الأمور بلغة بسيطة غير معقدة.. وليس فيهم ندّاب بكّاء.. ولا من يتعلـق بالمثل العليا.. ولا أبطال يتباهون بجلائل الأعمال.. بل هو عمد إلى كشف شخصياته والوصول إلى نزعاتهم السيئة.. فى تعبير بسيط..

ويمكن القول إن تشيكوف فى أعماله الأدبية صاحب اتجاه خاص فهو يصـور أمزجة الناس على حقيقتها.. وحالاتهم النفسـية على مختلف

أشـكالها.. كما يصف طبائعهم وسـلوكياتهم وعاداتهم.. وتلك التى لا ينتبه إليها المرء..

وتتوج هذه الأعمال مرحلته الثالثة ليكون من كبار الكتاب المسرحيين ومن العباقرة الذين أعطوا الكثير لهذا الفن..

وكان تشـيكوف مهتما بالكتاب الناشـئين.. وكثيرا ما يقول لهم: لا يجوز للكاتب أن يجلس بين أربعة جدران.. وأن يسـتولد الموضوعات مـن ذاته.. بـل عليه أن يرى الحياة والناس ويلمسـها.. ويسـتمع إلى أحاديث البشـر كما هى لا كما يتخيلها.. وأن يسـافر ويرحل ويحتك بمختلف العناصر والشعوب..

وكان تشـيكوف يحترم الكتـاب الكبار.. ومنهـم الكاتب العبقرى تولسـتوى وحدث أن أصيب تولسـتوى عام ١٩٠٠ بمرض عرّض حياته للخطر.. وكان تشيكوف طبيبه الخاص.. فأخذ يعالجه ويعوده يوميا.. ومرة خرج من عنده وقال لأصدقائه:

- إننى أخشـى موت تولستوى.. فسوف يحدث فقدانه فراغا عظيما فـى حياتى.. لأننـى أولا لا أحب أحدا أكثر منـه.. وثانيا لأن وجوده فى معترك الحياة الأدبية يسـهل على المرء أن يكون أديبا.. وأن يتذوق الأدب.. فتولسـتوى يعمل للجميع.. وثالثا: لأنـه يعمل على بناء قوة معنويـة تكبـح جماح الذوق القبيـح.. ورابع: لأن فـى بقائه ما يحفظ الأحاسيس الأدبية واتجاهاتها أن تظل فى مستوى عال ورفيع..

والغريب أن تولسـتوى شفى مرضه وسـار فى جنازة تشيكوف فيما بعـد.. وكان ذلك فى عـام ١٩٠٤ حيث ألح الأطباء عليه أن يسـافر إلى

ألمانيا للاستشفاء فقال لهم فى سفره: الوداع.. إننى ذاهب لأموت.. تحياتى إلى الأصدقاء والمعارف..

وبالفعل لم يفلح الطب فى علاجه وفارق الحياة فى ١٦ يوليو ١٩٠٤ ونقل جثمانه إلى موسكو ليشيعه أكبر الكتاب.. والبسطاء والجماهير.. ولسان حاله يقول فى قصته (أناس طيبون)..

- ماذا تكون حالنا لو أن الحياة الإنسانية كانت مبنية على عدم مقاومة الشرور.. لا شىء بتاتا.. فعدم مقاومة الشرور يفسح المجال لعبث الإرادة الآثمة.. وهذه - والمدينة معا - لا تبقيان على الأرض حجرا على حجر.. بل تتبقى جماعات من الأشقياء..

ترى هل كان يتنبأ بما يؤول إليه العالم اليوم الذى تحكمه جماعات من الأشقياء.؟

هذا هو الفتى العبقرى تشيكوف الذى وضع لبنات كثيرة فى قلعة التاريخ الأدبى الحصينة بعطائه المميز الذى كان مدرسة خاصة سار على نهجها الكثيرون شرقا وغربا.. فاستحق الريادة لهذا التيار الأدبى المتفرد..

□□□

مصطفى كامل.. وزعامة الوطن

تعددت أساليب الفتى فى الدعاية للقضية المصرية.. فقد كتب عددا كبيرا من المقالات فى الصحف المحلية والأوروبية.. وخطب فى عدد كبير من المحافل داخليا وخارجيا.. لكنه فكر فى أمر جديد يضاف إلى هذه الأساليب..

وضع الفتى نداء فى شكل صورة رمزية سياسية.. وطبع منه عدة آلاف من النسخ.. وذهب هو وستة من إخوانه المصريين الذين كانوا يقيمون فى باريس إلى سراى مجلس النواب يوم الأربعاء ٤ يونية سنة ١٨٩٥ لتقديم الصورة والكتاب المتصل بها..

كانت الصورة تمثل مصر ترسف فى قيود الاحتلال وتستصرخ فرنسا لتعاونها على تحريرها كما عاونت أمريكا وإيطاليا واليونان وبلجيكا على نيل فرنسا حريتها من قبل.. وفى ذيل الصورة ثلاثة أبيات شعرية بالعربية وبالفرنسية..

وفى مجلس النواب.. التقى الفتيان بالمسيو بريسون رئيس المجلس.. وتسلم منهم الكتاب والصورة وأبدى تفهمه لهذه المطالب.. وأرسل الفتى عقب هذا اللقاء نسخا من الصورة والكتاب إلى جميع صحف العالم.. والسياسيين فى أوروبا ومصر..

كان أسلوب الفتى هذا غير مألوف.. لكنه ووجه بتقدير كبير من كل أطياف الحركات السياسـية والاجتماعية فـي العالم.. وكان هذا العمل أكبر دعاية للقضية المصرية..

لقـد قام الفتـى مصطفى كامل وهو فى الحادية والعشـرين من عمره بهذا العمل الذى تنوء به الجماعات والأحزاب..

إن الشعور الوطنى الذى عاش ملازما مصطفى كامل.. بدأ من طفولته وظل يصاحبه حتى يوم رحيله..

وهاهو مصطفى كامل يولد يوم ١٤ أغسـطس عام ١٨٧٤ بحى الصليبة بقسم الخليفة بالقاهرة لأب من كبار المهندسين الضباط..

وكان الأب حريصا على الاهتمام بتثقيف مصطفى بالقصص والأساطير وهو بعد لم يتجاوز الخامسة من عمره..

ويعهـد بـه إلى أحـد الفقهاء ليعلمـه فى البيـت مبـادئ القراءة والكتابة والقرآن الكريم.. ثم هاهو يدخل مدرسـة (والدة عباس الأول) الابتدائية بالصليبة.

ويموت أبـوه وهو مازال فى المدرسـة الابتدائيـة ليكفله أخوه الأكبر حسين..

وفى عام ١٨٨٧ يلتحق بالمدرسة التجهيزية (الخديوية) حيث تظهر مواهبه فى الخطابة والشجاعة الأدبية.. والذكاء.. فكان موضع إعجاب الجميع.. ثم يدخل مدرسـة الحقوق فى عـام ١٨٩١.. وفى العام التالى يلتحق بمدرسة الحقوق الفرنسية ويجمع بين المدرستين.. ليحصل على شهادة الحقوق من كلية تولوز فى نوفمبر ١٨٩٤.

وكان الفتى فى أثناء وجوده فى المدرسة الخديوية قد أسس جمعية أدبية وطنية أسماها (جمعية الصليبة الأدبية).. واعتاد الفتى أن يقف فى الجمعية خطيبا مساء كل جمعة.. بل أخذ فى هذه السن يراسل الصحف والمجلات..

لقد التفت مصطفى كامل فيما حوله.. ليجد مصر فى حالة احتلال ومذلة.. فقد أخفقت الثورة العرابية.. ونقضت انجلترا تعهداتها بالجلاء.. وهاهى دول أوروبا تتراخى فى مواقفها مع المسألة المصرية.. أو النفوذ البريطانى فقد صار حاكما كل مقدرات الوطن.. حتى رجال مصر الأوفياء.. رآهم خاضعين للعميد البريطانى.. يتقربون إليه.. ناسين أنهم مصريون..

لقد صار اللورد كرومر هو صاحب الأمر والنهى فى البلاد.. ولا يوجد مكان ولا وزارة ولا قسم شرطة إلا ويرأسه إنجليزى أو تابع لبريطانيا.. حتى الصحافة.. صارت تابعة لهم.. موالية لما يملونه عليها..

أما الخديوى عباس الثانى فقد أسلم نفسه تماما إلى السيطرة الانجليزية حتى إن الجيش المصرى نفسه كان تحت سيطرة المفتش الانجليزى العام..

أما رجال مصر البارزون فكانوا إما مستسلمين فى دواوين الحكومة قانعين بمناصبهم خائفين على أرزاقهم.. وإما منصرفين إلى أعمالهم الخاصة فى مجالات التجارة والزراعة والطب والمحاماة.. لكنهم جميعا قد حل اليأس بنفوسهم من ممارسات الاحتلال وسيطرته على الخديوى والحكومة والبلاد..

لم ينخــرط مصطفى كامل فى هذه المواكب المحبطة اليائســة.. بل بــدأ حملة رفض وتمرد على الاســتعمار من خــلال رحلاته المتعددة لفرنســا ونشــره أفكاره بضرورة خروج الانجليز من مصر وحصولها على الاستقلال..

وحينما نال الفتى شــهادة الحقوق من فرنســا كان فى العشرين من عمره.. وهيأ له ذلك التعرف إلى السياســيين والحقوقيين فى فرنســا.. فبدأ ينشــر آراءه الوطنية فى كل مكان.. ولفت أنظار الجميع.. وأرسل إلى أخيه علىّ رسالة مهمة قال فيها:

- اليوم أحمد الله حمدا كثيرا.. وأشــكره شــكرا جزيلا على فك قيد أســرى والمن بإطلاقى فــى ميدان الحرية.. فقد أصبحت حاملا شــهادة الحقــوق.. وعولت بمشــيئة الله على الانتظام فى ســلك رجال المحاماة لأدافــع عن حقوق الأفراد.. ولو أتيح لى الخــير وبلغت ما أتمنى لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها.. أمام العالم أجمع.. لأن مصر وهى جنة الدنيا لا تســتحق أن يداس شــرفها بالأقدام ونصبح فيها نحن أبناءها الأعزاء ممقوتين غرباء....

ونلاحــظ أن مصطفــى كامل هنــا قد جعــل إجازة الحقوق بســاطه الســحرى.. ومركبــه الطليق نحــو تحرير أمتــه.. ولم يطمع فى مجد شخصى أو مستقبل خاص به.. أو نيل منصب من مناصب الدولة..

وتجــرى صحيفة (جازيــت دى تولوز) حوارا معــه يؤكد فيه هذه العزيمة التى تفجرت من داخله للنضال عن حقوق أمته.

ويعود الفتى إلى مصر.. ويستقبله أخوه على فهمى كامل ليجد معه صندوقين كبيرين مملوءين بالكتب التى تتناول المسألة المصرية وسياسة الدول الأخرى.. ومذكرات لكبار الساسة.

ويتعرف إلى مدام جوليت آدم وكانت من أعظم شخصيات فرنسا فى ميدان السياسة والوطنية والأدب.. وقد سعى الفتى إليها فى رسالة يقول فيها:

[سيدتى.. إنى لا أزال صغيرا.. ولكن لى آمالا كبارا.. فإنى أريد أن أوقظ مصر الهرمة.. مصر الفتاة..

هم يقولون إن وطنى لا وجود له.. وأنا أقول يا سيدتى إنه موجود وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه.. وسأجود فى سبيله بجميع قواى.. وأفديه بشبابى.. وأجعل حياتى وقفا عليه..

إنى أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة.. وقد نلت إجازة الحقوق من تولوز قبل سنة.. وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحمية والإخلاص اللذين أشعر بهما فى سبيل رفعة الوطن العزيز.. وقد قيل لى أكثر من مرة إنى أحاول محالا.. وحقيقة.. تصبو نفسى إلى هذا المحال.. فأعينينى يا سيدتى.. فإنك من الوطنية بمكان يفردك بمزية تقدير قولى وتقوية عزمى وشد أزرى.. وتقبلى تحية واحتراما..]

ويرفق مصطفى كامل مع هذه الرسالة كتابه (أخطاء الاحتلال البريطانى على مصر).. فتعجب به مدام جوليت وتساعده فى نشر آرائه.. بل إنه دعاها إلى مصر عام ١٩٠٤ واستقبلها بحفاوة وتكريم..

وفي كتابه (مصطفى كامل: باعث النهضة الوطنية) يتابع المؤرخ عبد الرحمن الرافعي سيرة هذا الزعيم وينشر خطبه ومقالاته وخطاباته المتبادلة التي يتجلى فيها جميعا روح الوطنية الصادقة..

ولم يلتفت الزعيم الشاب للقوى المضادة التي تصرفه عن هدفه.. ولم يستسلم للمؤامرات التي كانت تدبر له الخفاء من الخديوى نفسه ومن سلطات الاحتلال..

وهاهو ذا يبدأ جولة أخرى في فرنسا حيث دعا إلى اجتماع موسع في مدرج كلية الآداب جامعة تولوز حضره أساتذة الحقوق وكبار الصحفيين والكتاب وذوو الرأى.. وألقى بالفرنسية – التى يتقنها – خطبة مسهبة كانت أول خطبة سياسية لمصرى في أوروبا.. ذكر فيها اعتداء الاحتلال على حقوق مصر واستقلالها.. وكيف نقضت انجلترا اتفاقاتها السابقة في الجلاء.. وأخذ يحرض أوروبا وفرنسا على المعاونة في استرداد مصر حريتها واستقلالها..

وحينما عاد إلى مصر أعلن عن لقاء آخر في الإسكندرية حيث توافد على مكان اللقاء عشرات من الأجانب.. وكان موضوع اللقاء: حث المصريين على التمسك بحقوقهم في الاستقلال..

لكن الانجليز أخذوا يفكرون في التخلص منه.. أو الكيد له.. وبالفعل دبرت انجلترا له مكيدة شهيرة.. حينما أوعزوا إلى مجلس قرعة القاهرة بطلبه في التجنيد.. وكان يبلغ وقتها الثانية والعشرين من عمره.. وطلب مجلس القرعة من قسم الخليفة إبلاغه بالقرار..

وكان لهذه المكيدة ضجة كبرى في مصر.. حيث كانت القوانين آنذاك تقضى بأنه لاحق لهم فى طلبه للاقتراع لأنه من حملة الشهادات العليا.. كما أنه كان مستعدا لدفع البدل العسكرى الذى يعفيه من التجنيد..

وقد لجأت إنجلترا إلى هذه المكيدة حتى يكف الزعيم عن نشاطه الوطنى ضدها فى مصر وأوربا.. لكن الحكومة سرعان ما تراجعت عن تنفيذ ذلك القرار.. وأحبطت المؤامرة..

وفى عام ١٩٠٦ تتزلزل مصر بحادثة دنشواى الشهيرة والتى أقيمت فيها محاكمة صورية لعدد من فلاحى القرية بتهمة الاعتداء على ضباط انجليز فى أثناء صيدهم لحمام القرية.. وحكم فيها على واحد وعشرين متهما.. وحكم بالإعدام شنقا على أربعة منهم.. وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين.. وعلى واحد بخمس عشرة سنة.. وبسبع سنوات على ستة متهمين.. وبالحبس مع الشغل على ثلاثة.. وبالجلد خمسين جلدة على خمسة..

واستفزت هذه الحادثة مصطفى كامل فأخذ يكتب ويخطب ضد هذه السياسة الظالمة داعيا إلى الاستقلال..

وعقب ذلك أصدر الزعيم صحيفتين يوميتين: إحداهما بالفرنسية و الأخرى بالإنجليزية للدفاع عن حقوق مصر.. واطلاع الرأى العام الأوروبى على حقائق القضية المصرية.. إلى جانب صحيفة اللواء بالعربية.. ثم دعا إلى تأسيس الحزب الوطنى على غرار الأحزاب المنظمة فى أوروبا وانضم إليه عدد كبير من المصريين..

ودعا الزعيم إلى الإفراج عن سجناء دنشواى.. وعاونه فى ذلك عدد من السياسيين.. حتى تم ذلك في ديسمبر ١٩٠٧.. وحينما خرج المسجونون أسرعوا إلى دار اللواء ليقابلوا الزعيم شاكرين له معترفين بالجميل..

وصـار العبء كبيرا على صحة مصطفى كامـل.. حيث هاجم المرض جسـده عـام ١٩٠٦ فى أثناء وجـوده فى باريس.. بصحبـة زميله فى الجهاد محمد فريد.. وهناك نصحه الطبيب بالراحة.. لكنه أخذ يسابق الزمن فى إنجاز مهمته وهى إجبار المحتل على سرعة الجلاء..

وخلال السـنوات الثلاث الأخيرة مـن حياته (١٩٠٦ - ١٩٠٨) ظل الزعيـم يناضل بقوة وعزيمة غير عابئ بما يعانيه من مرض تسـلل إلى كل جزء من جسده..

ويشـتد عليه المرض قبل وفاته بثلاثة أشهر.. ولكنه كان يقاوم بكل قواه متحديا هذا المرض..

ويحـين موعد اجتمـاع الجمعية التأسيسـية للحـزب الوطنى يوم ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ فيترك فراش مرضه وينزل إلى ساحة دار اللواء حيث اجتماع الجمعية العمومية.. ويلقى خطبته كأقدر خطيب.. وكانت هذه هى الخطبة الأخيرة فى حياته..

وفـى السـاعة الرابعة من عصر يوم الاثنين ١٠ فبراير ١٩٠٨ أسـلم الزعيم روحه إلى بارئها لتشـهد مصر جنـازة وطنية عظيمة عجز عن تنظيمها رجال الأمن..

لقــد كان مصطفى كامل رمزا قويا للإخلاص الوطنى.. ولم يســتجب للمناصــب ولا للإغراءات التى تحول بينه وبــين أهدافه الكبيرة.. لقد أضــاف الزعيم إلى التاريخ صورة أخرى من صور الوطنية ومثالا قويا من أمثلة العطاء..

□□□

المهاتما غاندى.. الروح العظيمة

حكى الكاتب الهندى أ.س.ب. أيار فى كتابه [حكايات من الهند] حكاية تقول:

تحدث إلى بقرة سائح عالمى ممن يتقنون لغة البقر فدار بينهما هذا الحوار:

– أين تفضلين العيش: فى الهند أم فى انجلترا؟.

قالت البقرة: فى الهند..

قال السائح: ولم.. أتراك تجدين فى الهند معاملة أفضل؟

قالت: كلا.. بداهة.. وإنك تعرف هذا كما أعرفه.. ولو تُرك لى الأمر لرفضت العيش فى الهند وفى انجلترا أيضا.. فأنا فى الهند أطعم طعاما حسنا وأذبح فى آن واحد.. وأنا فى انجلترا إما أن أجوع وأذبح فى آن واحد.. وإما أن أجوع وأستبقى حية.. وربما تكون المعاملة فى انجلترا أفضل..

قال السائح: إذن فلم تفضلين الحياة فى الهند؟

قالت البقرة: إن الأمر ليس أمر الطعام وحده.. فهناك شىء أسمى وأنبل هو الإحساس واحترام النفس.. فأنا فى الهند يضعوننى فى أرفع الطبقات – طبقة البراهمة – وأعبد وأمجّد.. ولى فى كل عام موكب أزيّن

فيه وأجمل.. ولا أعامل مجرد حيوان أو شـــيء مختلف عن الإنسان كما هي الحال في انجلترا..

قال: ولكنك في الهند تجوعين وتساء معاملتك..

قالت: صدقت.. بيد أن ملايين من الهنود يجوعون.. وأجوع معهم.. ولئن كنت ألقى سوء المعاملة.. فالمرأة الهندية تلقى أيضا سوء المعاملة.. وإن أحزاني لتزول حين أرى العيون الدامعة الســوداء الناعمة اللطيفة القويـــة التعبير.. عيون المرأة الهندية تخفـــي أحزانها حتى لا تُباح.. عندئذ أنسى أحزاني في أحزانها.. وتحدّق كل منا في عيني الأخرى.. فنتعزى كلانا.. أما انجلترا.. فلا أظنني أظفر بهذا العزاء..

ربما عــبرت هذه الحكايـــة الرمزية عن معتقــدات الزعيم الهندى موهنداس كرشــند غانــدى (١٨٦٩-١٩٤٨) والذى لم يحاول أن يقترح عقيدة أو مبادئ جديدة عن الهندوكية.. فقد كان شديد التدين بهـا..

وفى الوقت نفســه كان يوقر الكتب المقدسة.. ويحترم الصفة المقدسة التـــى يضفونها على البقر.. ويتقبل نظام تخصيــص كل طبقة أو طائفة هندوكيـــة لواجبـــات مقررة لا يتعداهـــا.. كما لم يعــترض على عبادة الأصنـــام.. وكان يرى أن حرية ممارســـة العقيدة حق مكفول للجميع.. وأنهـــا لا تخرج عن كونها مظهـــرا رمزيا كصورة العـــذراء.. أو تمثال كريشنا.. أو كتاب مقدس.. أو صليب من حجر.. ويرى فى تقديس البقر رمز الاتحاد الذى لا ينفصم بين عالم الإنسان وعالم الحيوان!

وقصـــة غاندى مع النضـــال والتحرر بدأت منذ الصغـــر.. فهو تعلم بالهند ثم سافر إلى لندن لاستكمال دراسته فى الحقوق (١٨٨٩)..

وحينما سمع باضطهاد الهنود فى جنوب إفريقيا أعلن العصيان المدنى وسافر إلى جنوب إفريقيا للعمل على إلغاء القوانين الموجهة إلى الهنود..

ثم يعود إلى الهند لينظم سلسـلة من الاحتجاجات من قبل الفلاحين والمزارعين والعمال فى المناطق الحضرية ضد ضرائب الأراضى الباهظة.. والتمييز فـى المعاملة.. وطرح وراء ظهره العادات الأوروبية من ملبس ومأكل واتبع نظاما شـديد التقشـف فى معيشته.. وارتدى قطعة قماش تغطـى نصف جسـده.. ونادى بوحدة الجنس البشـرى تحت نواميس الله.. وبشـر المسلمين والمسـيحيين والهندوس جميعهم بتعاليم المحبة والعدالة والإخاء..

ويتولى رياسـة المؤتمـر الوطنى الهنـدى.. ويقود حمـلات وطنية لتخفيـف حدة الفقر.. ومنـح حقوق المرأة.. وبناء وئـام دينى وطنى.. ووضع حد للنبذ والتمييز.. وزيادة الاعتماد على الذات اقتصاديا.. وذلك كله من أجل استقلال الهند من السيطرة الإنجليزية..

ويحتـج غانـدى وأعوانه فى صورة (مقاومة سـلبية) على أسـلوب الاحتلال خاصة حينما فرضت انجلترا ضريبة على الملح.. فسار غاندى وأعوانه مسـافة تقدر بـ ٤٠٠ كيلومتر فى مسـيرة عرفت (بمسيرة ملح داندى ١٩٣٠) ويقبض على غاندى ويودع فى السجن عدة سنوات..

وعرف غاندى بأنه نباتى لا يأكل اللحم.. وأنشـأ ناديا نباتيا إمعانا فى التقشـف وبسـاطة الحيـاة.. والزهـد.. ونادى بفلسـفة اللاعنف (الساتياجراها) وهى تقوم على مجموعة من المبادئ الدينية والسياسية

والاقتصادية فى آن واحد.. وملخصها أن الشجاعة والحقيقة واللاعنف أسس تهدف إلى إلحاق الهزيمة بالمحتل عن طريق الوعى الكامل والعميق بالخطر المحدق وتكوين قوة قادرة على مواجهة هذا الخطر باللاعنف أولا ثم بالعنف إذا لم يوجد خيار آخر..

وتتخذ هذه السياسة عدة أساليب لتحقيق أغراضها منها الصيام والمقاطعة والاعتصام والعصيان المدنى والقبول بالسجن.. وعدم الخوف من أن تقود هذه الأساليب حتى النهاية إلى الموت..

ونلاحظ أن المقاومة السلبية هذه لا تعنى الضعف بل هى كل القوة إذا آمن بها من يستخدمها..

ويشترط غاندى لنجاح هذه السياسة أن يتمتع الخصم ببقية من ضمير وحرية تمكنه فى النهاية من فتح حوار موضوعى مع الطرف الآخر..

وقد تأثر غاندى فى نضاله ضد الاستعباد والتمييز بعدة مؤلفات كان لها دور كبير فى بلورة فلسفته ومواقفه السياسة منها : (نشيد الطوباوى) وهى ملحمة شعرية هندوسية كتبت فى القرن الثالث قبل الميلاد.. وكانت لدى غاندى بمثابة دستوره الروحى يستلهم منه أفكاره..

كما تأثر بموعظة الجبل فى الإنجيل.. وتولستوى فى كتابه (الخلاص فى أنفسكم) والذى زاده اقتناعا بمحاربة المبشرين المسيحيين.. وكذلك كتاب (العصيان المدنى) للكاتب الأمريكى هنرى ديفيد ثورو.. إلى جانب مبادئ الهندوكية التى تدعو إلى الزهد والتنسك والتزام الصمت يوم الاثنين من كل أسبوع.. وعبر هذه الممارسة يتوصل الإنسان إلى تحرير ذاته قبل أن يستحق تحرير الآخرين..

وقد تميزت مواقف غاندى من الاحتلال البريطانى فى الهند بالصلابة المبدئية التى لا تلغى المرونة التكتيكية.. وقد اكتسب غاندى هذا الأسلوب من وجوده فى جنوب أفريقيا من قبل حينما دافع عن حقوق الهنود هناك أمام الشركات البريطانية التى كانوا يعملون بها.. وتعد الفترة التى قضاها فى جنوب أفريقيا (١٨٩٣ - ١٩١٥) من أهم مراحل تطوره الفكرى والسياسى حيث أتاحت له فرصة تعميق معارفه وثقافته.

وحينما تحدى غاندى القوات البريطانية فى احتجاجات الملح.. أوقع السلطات فى مأزق.. فقد كان هدف المسيرة التوجه إلى البحر لاستخراج الملح.. مما جعل بريطانيا تتفاوض على حل وسط..

ثم يقرر غاندى الاستقالة من حزب المؤتمر الوطنى للتفرغ لحل المشكلات الاقتصادية التى كان يعانيها الريف الهندى.. ودعا إلى مزيد من العصيان المدنى.. فمارست بريطانيا ضد غاندى وأعوانه أساليب العنف والاعتقالات والقمع.. كان غاندى نفسه من ضحاياها حيث ظل معتقلا خلف الجدران ولم يفرج عنه إلا فى عام ١٩٤٤ ليجد الهند قد قسمت..!

ويتألم غاندى لهذه الأحداث والتى شملت اضطرابات دينية شديدة بين المسلمين والهندوس.. مما تسبب فى سقوط نحو خمسة آلاف قتيل فى كلكتا وحدها.. ثم تزداد حدة التوتر بين الهند وباكستان بشأن كشمير.. مما جعله يبذل أقصى جهده فى إعادة الوحدة الوطنية واحترام حقوق المسلمين..

ولم تــرق دعوات غانــدى للأغلبيــة الهندوســية واعتبرتها بعض الفئــات المتعصبة خيانة عظمى فقــررت التخلص منه.. وبالفعل حدث فى ٣٠ يناير ١٩٤٨ أن أطلق أحد الهندوس المتعصبين ويدعى (جوتسى) ثلاث رصاصات قاتلة سقط غاندى على إثرها صريعا بعد محاولات لقتله بلغت ست محاولات..

لقد لقب غاندى بالمهاتمــا.. ومعناها (الروح العظيمة).. وهو لقب كان يعارضــه بشــدة لأنه كان يرى نفســه خادما لوطنــه.. زاهدا فى الدنيــا.. لكنه برغم كل شــئ اســتطاع أن يوقظ أمة كبــيرة هى الأمة الهندية علــى حقوقها المنهوبة.. حتى أرغــم الاحتلال على الإذعان وتلبية هذه الحقوق..

صحيــح لقد عانى غاندى الســجن والاضطهــاد.. والقمع.. لكنه كان يؤمن بأن العزيمة هى أقوى من كل القضبان..

ومن ثم اســتطاع أن يصنــع التاريخ منذ تفتحت عينــاه على مبادئ الحرية والعدالة..

□□□

ألبرت أينشتين.. ونظرية النسبية

عاش الفتى يمقت المال.. وينفق وقته لأبحاثه العلمية.. ومن ثم لم يكن معنيا بمظهره طوال حياته..

وحدث أن ذهب ليلقى محاضرة فى جامعة برلين.. وهو يرتدى صندلا وسروالا قصيرا من سراويل الألعاب الرياضية..

وحينما دعته ملكة بلجيكا لزيارتها.. لم يضع فى حسبانه أنه سوف يستقبل فى محطة السكة الحديدية كما يستقبل كبار الزائرين.. ومن ثم حينما وصل إلى المحطة النهائية.. ترجل من القطار وفى يده اليمنى حقيبة ملابسه.. وفى يده اليسرى كمانه الذى يحبه.. ثم بدأ يسير على قدميه نحو القصر..

وعبثا حاول المستقبلون الرسميون البحث عنه فى المحطة.. ولما يئسوا عادوا إلى الملكة يخبرونها بأن الضيف غالبا قد غير رأيه ولم يحضر.. وبينما هم فى طريق العودة لمحوا شبحا مغبرا قصيرا قادما من بعيد..

وحينما وصل إلى القصر سألته الملكة: لماذا لم يستخدم السيارة التى أرسلتها إليك؟ أجابه بابتسامة ساذجة: لكم كانت نزهة جميلة تلك التى قطعتها على قدمى يا صاحبة الجلالة..

وحينما ألقيت القنبلة الذرية على هوريشيما.. ندم العالم الكبير على أبحاثه فى مجال الفيزيقا وقال: لو أننى أدركت ذلك فى حينه.. لوددت أن أكون صانع أقفال.. أو سمكريا..

هو أشـــهر عالم فيزيائـــي منذ بدايـــة القرن العشـــرين.. وواحد من أكـــبر الفلاســـفة الطبيعيين المعاصرين.. فهو مؤســـس نظرية النســـبية (العامة والخاصة).. بالإضافة إلى عدد من النظريات الفيزيائية الأخرى التى أدت إلى تصورات جديدة عن كثير من المفاهيم التى يهتم بها العلماء والفلاسفة مثل المكان والزمان والقوة والحركة والجوهر وغيرها..

إنـــه ألبرت أينشـــتين الذى ولد فى عـــام ١٨٧٩ وتوفى عام ١٩٥٥ فى مدينة (أولم) فى ألمانيا لأبوين يهوديين..

التحـــق بالتعليم الأولى.. وكان مثلا للبلادة وبطء التفكير.. وكثيرا ما كان مدرسوه يشكونه إلى أبيه الذى كان مهندسا مشهورا فى زمانه..

وكان يهـــوى عزف آلة الكمان.. وعندما يبدأ العزف يتوحد مع لحنه وتتملكه موجة من السحر الروحى.. ومع ذلك فهو دائم البحث فى كتب تتعلق بتاريخ الفيزياء والفلسفة حتى إنه تعرف إلى كثير من العلماء من خلال كتبهم وهو لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره.

انتقلت الأســـرة إلى ميلانو بإيطاليـــا.. لكنه فضل أن يبقى وحيدا فى ميونـــخ وهاهو يدرس الرياضيات والفيزيـــاء بأحد المعاهد الصناعية فى زيـــورخ.. لكنه أيضا لم يكـــن متفوقا.. وتخرج عـــام ١٩٠٠ وهو يمقت التفكير فى أى مشكلة علمية..

وفيما بين عامى ١٩٠١-١٩٠٥ نشر أينشتاين عدة بحوث حول:

كهروديناميكية الأجسام المتحركة معارضا آراء نيوتن فى هذا المجال..

وفى عام ١٩٠٧ أكمل ثورته بنشر بحث أثبت فيه أن الكتلة والطاقة متكافئتان فكان له صدى كبير فى الأوساط العلمية..

عمل أينشتين أستاذا بجامعة زيورخ عام ١٩٠٩ ثم أستاذا بجامعة برلين عـام ١٩١٣.. وحصل على جائزة نوبـل عام ١٩٢٢.. ثم انتقل إلى الولايات المتحدة وظل فيها حتى توفى عام ١٩٥٥ بعيدا عن اضطهاد هتلر..

ويمكن توضيح أهمية أينشـتين العلمية من خلال النتائج الفلسـفية المترتبة على كشـوفه العلمية.. خاصة ما يتعلق بنظريته فى النسـبية العامة والخاصة.

لقد رفض أينشـتين القول بوجود الحركة المطلقة.. وكان هذا غريبا على فتى فى العشـرين من عمره يعارض نيوتن الذى افترض أن الزمان والمكان مطلقان.

فالحركة لدى أينشتين تقتضى القول بوجود ما يتحرك.. وما تنسب إليـه الحركـة وبمكان وزمان تتـم فيهما الحركـة.. أى القول بوجود الأشياء (المادية) وبالمكان والزمان.

ومن ثم فلا وجود لما يسـمى بالمكان المطلـق ولا بالزمان المطلق.. وأن الزمان غير منفصل عن المكان..

لا شـىء إذن مطلق قائم بذاته.. بل إن المواضع المكانية تكون منسوبة إلى الأشياء التى تشغلها أو إلى الأحداث التى تحدث فيها.

وفى كتابه (النسبية) يوضح ذلك بقوله:

- لقد أردت أن أوضح أن المكان ليس بالضرورة شيئا يمكن أن نمنحه وجودا منفصلا بطريقة مسـتقلة عن الأجسـام الفعليـة فى دنيا المادة.. فالأجسـام المادية ليسـت (فى المكان) بل هى (امتـداد مكانى) وبهذه الطريقة يفقد تصور المكان الفارغ معناه..

ويدخل أينشتين الزمن بعدا رابعا إلى جانب الطول والعرض والارتفاع فيتحديد أية حادثة واقعة.. وهذا يعنى أن الزمان لم يعد شيئا مطلقا له وجود مستقل بذاته.. بل هو نسبى يستخدم فى تحديد الوقائع والأحداث.. ومنسوب إليها..

وبهذا ربط أينشتين بين الزمان والمكان فى تصوره وانعكس هذا الربط لدى كثير من الفلاسفة المعاصرين.. إما برفضهم أن يكون للزمان وجود حقيقى مثل الفيلسوف الإنجليزى (جون ماكتجارت) أو بأخذهم بتصور (الزمان - المكان) مثل برتراند راسل..

أحدث ذلك التصور ثورة فيزيقية فى كل مكان.. ودل على عبقرية أينشتين الذى تخلى عن بلادته القديمة وحطم جدار العزلة إلى عالم من الفكر والفهم..

وكما فعل مع الزمان والمكان.. فعل مع الكتلة والطاقة وربط بينهما قائلا: إنهما أيضا متكافئان..

ومرة صعد أينشتين فوق سلم خشبى ليعلق لوحة على الحائط وفى أثناء هذا العمل شرد ذهنه فأفلتت قدمه وسقط على الأرض..

فكر الفتى فيما حدث وما سبب سقوطه أهى الجاذبية التى اهتدى إليها نيوتن من قبل حينما سقطت التفاحة أمام عينيه..

أخذ العالم النابه يحلل الحركة والفضاء والزمن وتوصل إلى نتيجة مذهلة.. تقول بأن الأجسام لا تنجذب أبدا إلى أسفل.. بل إنه ليس هناك فى الحقيقة شئ يسمى (أسفل) أو (أعلى) فى الكون.. بل إن حركة

الأجســام تنتج فقط عن ميل المادة إلى ســلوك الطريق الذى تجد فيه أقل مقاومة.. وعندما تتحرك الأشياء خلال الفضاء فإنها تختار - بناء على ذلك - أسهل المسالك وتتجنب أصعبها..

وله نظرية أخرى أكثر غرابة وهى (تقوس الفضاء) ويقول عنها:

- إن أقصر بعد بين نقطتين ليس خطا مســتقيما ولكنه خط مُنْحن..

حيث إن الكون كله يتكون من سلسلة من التلال المقوسة.. وكل الأجسام فى هذا الكون تتحرك حول المنحدرات المنحنية لتلك التلال.. ولا يوجد فى الواقع شــئ فى كوننا يقال له الحركة فى خط مســتقيم.. ولا شعاع الضوء الذى يسافر نحو الأرض من نجم بعيد ينحرف فى مساره عندما يجتاز منحدر تل الفضاء الموجود حول الشمس..

وقد أثبت العلماء صحة هذا التصور عمليا حينما أثبتوا انكسار شعاع الضوء حينما مر فى مجال جاذبية الشمس فى كسوفها عام ١٩١٩..

ويســتمر العالم فى اكتشافاته فى سنين ما قبل الحرب العالمية الأولى حينمــا صاغ نظريته عن تحويل المادة إلى طاقة.. وبات واضحا أن كل ما يلزم لانتاج ســلاح نووى أو قنبلة ذرية هو تجميع كمية كافية من المادة القابلة للانشطار وهى كمية تسمى (الكتلة الحرجة).

ويكتب أينشتين رســالة إلى الرئيس الأمريكى روزفلت يوضح فيها إمكانية إنتاج قنبلة ذرية..

ويأمر روزفلت بتكوين لجنة من كبار العلماء لبحث فكرة أينشتين.. ودراسة هذه الفكرة من جميع جوانبها..

وجـاء ربيع ١٩٤١ لتقدم اللجنة تقريرها بإمـكان إنتاج القنبلة فى غضون أربع سنوات قادمة..

وتقـوم الحـرب العالميـة الثانية ويضـرب اليابانيـون ميناء بيرل هاربـور.. وتدخل أمريكا حرب المواجهة الشرسـة.. لتقوم أول حرب نووية فى تاريخ البشـرية.. وتلقى أمريكا قنبلتها على هوريشـيما فى أغسطس ١٩٤٥ ثم نجازاكى بعدها بثلاثة أيام..

وتحصـد القنبلتان آلاف البشـر.. بل يصيب إشـعاعهما مزيدا من الآلاف.. ويندم أينشتين على ما حدث.. لكن بعد فوات الأوان..

ويتحول العالم الكبير فى عام ١٩٢١ إلى العقيدة الصهيونية ويعرض عليه أن يكون رئيسا لإسرائيل.. لكنه فضل أبحاثه العلمية..

لقد بدأ أينشـتين حياته تلميذا شـاذا بليـدا.. لا يليق أن يكون ابنا لمهندس كهربائـى كبير.. وانتهى عالما قلب موازيـن القوى الدولية.. بما قدمه من أبحاث مختلفة فى مجال الفيزياء كان آخرها هذه القنبلة الذرية التى تهدد السلام فى العالم..

ولنا أن نحسبه على هؤلاء العلماء الذين غيروا وجه التاريخ.. وبقى على رجال الساسة أن يستخدموا تلك الطاقة النووية فيما ينفع البشرية وليس بقصد الدمار والحروب..

□□□

محمود مختار.. فنان النحت الحديث

في أوائل القرن العشرين كان أحد أشكال الصراع في المجتمع المصرى يدور بين قصر الخديوى والاستعمار الإنجليزى من جانب.. وشباب الأفكار المتحررة الوطنية من جانب آخر.. وانعكس هذا الصراع على الثقافة والمجتمع..

ومن ثم كان الإقطاعيون الذين ارتبطوا بالقصر والاستعمار يرسلون أبناءهم للدراسة في بريطانيا.. على حين يرسل الجانب الآخر أبناءه لفرنسا المنافس الأول لبريطانيا وعاصمة الفكر والنور في أوروبا..

وكان الأمير يوسف كمال ينحاز إلى أصحاب الفكر الجديد.. ولهذا أرسل الفتى الفنان المتحمس محمد مختار ليدرس الفن في باريس على نفقته الخاصة..

وهناك على الشاطئ البعيد من البحر المتوسط تنبه الفتى إلى تراثه الفرعوني العريق.. وقبل أن يحدث أحدا عن هذا التراث استقبله زملاؤه في مدرسة الفنون الجميلة في باريس بتقاليد الاستقبال الغريبة.. فقد حكم عليه بالتجرد من جميع ثيابه ليبقى عاريا تماما.. ثم يشد زملاؤه وثاقه إلى كرسي ويضعون على رأسه تاجا من الورق على شكل فرعوني.. مكتوب عليه (رمسيس الثاني) ثم يحملونه على نقالة فوق أكتافهم.. ويخرجون في موكب كبير.. وكان المطر يومها

يتساقط رذاذا.. وهاهم يصلون إلى مقهى بونابرت والناس من حولهم يبتسمون.. وهناك وضعوه على خوان بالمقهى وطلبوا طعاما وشرابا ثم يرمونه بالفضلات وقشر المحار وكأنهم يقدمون له الزلفى والقرابين.. وتولى أحد الزملاء إطعامه لأنه كان مقيدا.

ولد محمود مختار فى ١٠ مايو عام ١٨٩١ وتوفى فى ٢٧ مارس ١٩٣٤. وكان ميلاده فى قرية (نشا) قرب مدينة المحلة الكبرى.. وفى السنة نفسها ولد سيد درويش وطه حسين والعقاد والمازنى ويوسف كامل وراغب عياد.

وفى الحادية عشر من عمره فضل الفتى أن ينتقل إلى القاهرة ليعيش مع أمه فى أحد الأحياء الشعبية..

ويتذكر زملاؤه فى (نشا) كيف كان يقضى معظم وقته بجانب ترعة القرية يشكل من الطين بعض المناظر التى تلتقطها عيناه..

وعندما أنشأ الأمير يوسف كمال أول مدرسة للفنون الجميلة عام ١٩٠٨.. كان محمود مختار الطالب رقم واحد إذ التحق فى اليوم التالى وهو فى السابعة عشرة من عمره.. ثم توافد على الكلية فيما بعد ما يقرب من مائة وسبعون طالبا.. وكانت الدراسة من الثامنة صباحا إلى الواحدة بعد الظهر للطلبة النظاميين .. ومن الواحدة إلى الخامسة للموظفين والهواة..

ولم تمض ثلاث سنوات على بدء الدراسة بالمدرسة حتى أقيم معرض فنى ساهم فيه الطلاب جميعا وكان ذلك فى يناير ١٩١١.. وبرزت فى هذا المعرض تماثيل الشاب محمود مختار ومنها تمثال (ابن البلد) الذى بيع منه ثمانى نسخ.. وكان ثمن النسخة آنذاك جنيهين ذهبيين..

كانـت التماثيل قد توقف نحتها منذ دخول الإسـلام مصر على أيدى عمـرو بن العاص.. بل اكتفى المصريون بتماثيل الفراعنة التى لم تمتد لها يد التدمير.. وفى أوائل ١٩٠٨ كان الأمير يوسـف كمال أول البادئين فى إنشاء صرح نهضة مصر الفنية وبدأ الفنانون المستشرقون يساعدون فى ذلك من أمثال (لابلان) ناظر المدرسة وأستاذ النحت - و (فورتشيللا) الإيطالى أستاذ التصوير - و(كولون) أستاذ الزخرفة - و(بيرون) أستاذ العمارة..

وكان مختار أول فنان معاصر يعيد قيمة النحت إلى مكانتها الفنية.. فقد اسـتطاع أن يبتكر الصيغة الجمالية الملائمـة لتزاوج القيمة الفنية الأوروبية فى القرن التاسع عشر بالقيم الجمالية الفرعونية..

وكان مختار أول فنان مصرى شاب يعرض عملا فنيا فى معرض عالمى هو تمثال (عايدة) الذى استوحاه من أوبرا فيردى عام ١٩١٢ - ويكسب الجوائز الفنية خارج مصر (الميدالية الذهبية لمعرض السـراى الكبرى بالشـانزليزيه عن نموذج تمثاله نهضة مصـر) وجائزة معرض ١٩٢٥ لتمثـال (أم كلثوم) - كمـا كان أول فنان مصرى يقيم معرضا شـخصيا فى باريس عام ١٩٣٠ عرض فيه ثلاثين تمثالا واشـترت منه الحكومة الفرنسية تمثال (عروس النيل) لمتحف (التويللرى).

لقـد خاطـب مختـار بتماثيله الآمـال والأحلام.. وحـد الخيال.. وامتزجت مشـاعره بمشـاعر أمته.. فسـيطرت عليه فكرة صنع تمثال نهضة مصر فى أثناء إقامته فى باريس..

لم يكـن هذا المشـروع تكليفا من شـخص أو هيئة بل كان إحساسـا نابعا من أعماق الفنان ولم يكن يدرى أن شـعبه سيطالبه بإقامته صرحا

جرانيتيا لم يزل شامخا يتصدر الطريق إلى جامعة القاهرة.. وكان مختار يقول عن التمثال دائما :

لست صاحب التمثال بل الشعب هو صاحبه..

ويصور التمثال امرأة واقفة فى ملابس الفلاحة المصرية ترفع عن وجهها الحجاب بيسراها.. أما يمناها فتمتد لتلمس بأصابعها رأس تمثال أبى الهول الذى يفرد قائمتيه الأماميتين فى تعبير عن النهوض..

ونلاحظ أن مختار يعبر بالفلاحة المصرية عن الشعب المصرى.. حيث اعتاد المصريون أن يطلقوا على بلدهم (أمنا مصر).. وهو رمز يختلف عن صورة الوطن فى بلاد أخرى.. فهو عند الإنجليز مثلا نرى رمز الوطن هو الأسد.. وعند الأمريكان نرى الوطن هو الفتاة اللعوب.. وهكذا..

أما أبو الهول فى التمثال يرمز إلى تاريخ وحضارة مصر فى أيام عظمتها وقوتها.

وقد نزع مختار عن أبى الهول المعنى الدينى القديم الذى يصوره كائنا مقدسا وأخرجه من صورته القديمة عندما افترض أنه ينتفض ليتحرك وينهض.. وجسّد هذه الصورة المتخيلة محتفظا له بجلاله وهيبته لكى يستنهض الهمم فى كل زمان وأمام كل الأجيال..

وحينما عرض مختار نموذج تمثاله فى باريس نال عليه شهادة الشرف عام ١٩٢٠ مما جعل المصريين يفكرون فى إقامته فى أحد ميادين القاهرة الكبرى..

وبدأت الصحافة حملة اكتتاب لإقامة التمثال.. وأخذت الأقلام تحرض الجماهير على ذلك.. فتمثال نهضة مصر هو أول تمثال يقام من

حجر الجرانيت بعد مصر الفراعنة.. بل هو أول تمثال مصرى يعبر عن فكرة ورمز بعد أن كانت التماثيل وقفا على الملوك والقادة والزعماء..

وفى ٢٠ مايو ١٩٢٨ أزاح الملك فؤاد الستار عن التمثال فى احتفال رسمي كبير.. ولم يحقق مختار من تمثاله مغنما خاصا فى مقابل الفكرة الفنية للتمثال فقد أنساه التقدير الأدبى ملكيته للتمثال.. وهون لديه قيمة المال.. ونراه يكتب تنازلا عن حقه فى المكافأة المستحقة له..

وقد حظى فن مختار باحترام وتقدير الأوساط الفنية الرسمية فى باريس والقاهرة.. واكتسب فى الوقت نفسه تأييدا حماسيا من جماهير الشعب المصرى الذى أشعل الروح الوطنية فى البلاد..

وفى الفترة ما بين عامى ١٩٣٠ - ١٩٣٢ نحت محمود مختار تمثالى الزعيم المصرى سعد زغلول بالقاهرة والإسكندرية..

وكانت بين مختار وأم كلثوم رابطة قوية.. فهو الفنان الذى جاء من صميم الريف المصرى.. ليعيد لمصر مجد فن النحت.

وأم كلثوم هى الفتاة الريفية التى شقت طريقها لتحيى فن الغناء العربى الأصيل.. وحينما طلب من مختار أن يقيم فى باريس تمثالا لأكبر فنانة مصرية اختار أم كلثوم.. وصمم تمثالا لها عام ١٩٢٥..

وبالرغم من أن عمره الفنى كان قصيرا لوفاته مبكرا.. فقد نجح فى أن يخلف تراثا كبيرا مميزا يتجلى فى ميادين مصر من أقصاها إلى أدناها.. فصار بذلك رائد فن النحت المعاصر..

ولم يكن مختار مجرد نحات عبقرى بل كان مفكرا يحس قضايا وطنه ويعبر بتماثيله عن رغبات الشعب وأحلامه .

وكان يصمم تماثيله بالخامة المناسـبة للشـكل والمضمـون.. فالمناجاة باللون الأبيض.. بالرخـام الأبيض.. ووجه الفلاحة بالصلصال المصبوب برونزا حتى تكتمل ملامس الصلابة والمشقة رغم الجمال المصرى الأصيل.. والحجر الصناعى لتمثال الخماسين حتى يوحى بهبوب العواصف..

وقـد أنجز مختار تماثيـل الفلاحات بين عامـى ١٩٢٤ و ١٩٣٠ ومن أهمها: الخماسين - والفلاحة التى تمسك جرتها بيد واحدة وتنحنى عليها كأنها تملؤها.. وغيرها من الأعمال التى توحى بالحركة والديناميكية..

وهكذا يثبت مختار أن الواقعية قادرة على إظهار القيم الفنية المطلقة.. ويندفع مختار فى تيار الحماسـة والعمل بين القاهرة والإسـكندرية.. حتى تغير الاتجاه السياسـى فى مصر.. وأقيمت العقبات فى طريقه.. وبدأت المضايقات ففضل الهروب إلى باريس ينحت تماثيله هناك..

وتتابعت أيـام الضيق والألم حتى أحس المـرض يهاجمه بضراوة.. فيجرى فى يوليـو ١٩٣٣ جراحة دقيقة.. لكن الأطباء نصحوه بالعودة إلى وطنـه.. فودع أصدقاءه وألقى نظرة أخيرة على مرسمه عميقة الحزن والأسى.. ثم غادر باريس بحرا إلى الإسكندرية وكان فى استقباله الفنان محمود سعيد والفنان جان نيكولايدس.. فمضيا به بالقطار إلى القاهرة.. حيث استأجر منزلا بمصر الجديدة.. ولم يمهله المرض كثيرا حتى مات فى ٢٧ مارس عام ١٩٣٤ وهو فى ريعان شبابه..

وتتشكل جمعية أصدقاء مختار برياسة السيدة هدى شعراوى لتخليد أعماله فجمعت أثاره فى متحف خاص به بالزمالك..

ورصدت كل عام جائزة فنية باسمه منذ عام ١٩٣٥.

وفى الذكرى الخمسـين لوفاة مختار أقام متحفه احتفالات استمرت شهرا كاملا عرضت خلاله الأقلام والشرائح الملونـة.. وعقدت الندوات.. ووزعت الجوائز وأعيد طبع دليل المتحف..

واسـترجعت أعماله من باريس ليكون متحفه شـاهدا على عبقريته التى أسهمت فى إعادة كتابة التاريخ الفنى لمصر فى مجال النحت..



سيد درويش.. فنان الأصالة

استقبل هارون الرشيد الفنان زرياب.. وسأله عن شأنه في الغناء فأجاب:

- أنا أحسن ما يحسنه الناس.. وأكثر ما أُحسنه مما لا يحسنونه.. ولا يحسن إلا عندك.. ولا يدخر إلّا لك.. فإن أذنت غنيتُك ما لم تسمعه أذن..

فاستدعى له الرشيد عود (إسحاق الموصلي).. فأبى زرياب وقال:

- يا أمير المؤمنين إن لى عودى الذى نحته بيدى.. وأرهفته بإحكامى.. ولا أرتضى غيره..

فأمر الخليفة بإحضار عود زرياب.. ولما رآه لا يختلف عن عود إسحاق قال:

- ما يمنعك أن تستعمل عود أستاذك؟.. فأجاب:

- إن كان مولاى يرغب في غناء أستاذى غنيتُه بعوده.. وإن كان يرغب في غنائى فلابد لى من عودى..

فقال الرشيد: ولكنى ما أراهما إلا واحدا.. لا فرق..

فقال زرياب: صدقت يا مولاى.. ولا يؤدى النظر بغير ذلك.. ولكن عودى وإن كان فى قدر عوده.. ومن جنس خشبه.. فهو يقع من وزنه فى الثلث أو نحوه.. وأوتارى من حرير لم يغسل بماء ساخن يكسبها أنوثة ونعومة ورخاوة.. وقد اتخذتها من مصران شبل فلها من الترانيم

والصفاء.. والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان.. ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب ما ليس لغيرها..

وهنا هز الرشيد رأسه موافقا وأمره بالغناء..

وزرياب أحد أعلام الموسيقى العربية فى العصر العباسى.. ونظنه لم يتكرر حتى جاء فتى آخر على أرض النيل يحيى هذه الأصالة وهذا الفن الجميل وهو سيد درويش..

ولد سيد درويش فى عام ١٨٩٢ فى حى كوم الدكة بالإسكندرية.. ذلك الحى الشعبى المتواضع الذى يتوسط المدينة.. ويقع على ربوة تجعل أهله فى شبه عزلة عن أحياء الإسكندرية بما فيه من أزقة ضيقة ودروب مظلمة وبيوت قديمة..

وكان أبوه المعلم درويش البحر يملك مصنعا صغيرا للنجارة.. وقد تزوج بالسيدة (ملوك) ورزق منها بفريدة وسيد وستوتة وزينب..

ألحقه أبوه بكُتَّاب الشيخ (حسن حلاوة) وهو ليس بعيدا عن بيته.. وكان بالكُتَّاب مدرس يدعى (سامى أفندى) له شغف بحفظ الأناشيد.. وكان يلقنها للأطفال فى الكتاب.. واستطاع هذا المدرس أن يكتشف موهبة سيد درويش فى الغناء منذ الخامسة من عمره..

وفى عام ١٨٩٩ توفى والده المعلم درويش البحر فتولت الأم شئون ابنها الذى مازال فى السابعة من عمره..

ويلتقى سيد درويش مرة أخرى بسامى أفندى فى المدرسة حيث كان يلقن التلاميذ بعض الأناشيد التى وضعت فى حكام مصر.. ويستهل بها التلاميذ حفلاتهم المدرسية..

تـدرب التلميـذ على هذه الأناشـيد.. وتألقت هوايتـه بترديدها بصوته الشجى..

وفى عام ١٩٠٥ كان سيد درويش فى الثالثة عشرة من عمره.. ارتدى زى القـراء المعممين.. والتحـق بالمعهد الدينـى.. وراح ينمى موهبته بالإنشـاد الدينى والليالى والأفراح فى حى كوم الدكة.. وأدى انشـغاله بالغناء إلى فصله نهائيا من المعهد الدينى.

وكان لابـد أن يبحث عن عمل يعيش منه.. فاشـتغل عامل بناء لكى يكسب قوته وقوت أسرته.. وكان فى أثناء عمله يردد على أسماع زملائه عمال البناء ألوانا من الغناء الشعبى التى يحفظها.. وكان العمال سعداء بما يسـمعونه منه.. وكانوا كثيرا ما يعفونه مـن العمل مقابل الترفيه عنهم بالغناء..

وتحدث المفاجأة فى أحد أيام العمل..

فقد جلس فى مقهى قريب من موقع العمل الممثل السـورى الشـهير (أمين عطا الله) وكان صاحب فرقة للتمثيل والغناء..

التقطت أذنا الرجل صوت سيد درويش وهو يتغنى بالأغانى الشعبية فأعجب به وأرسل إليه من يستدعيه..

وسأله الرجل: هل تحب الغناء؟

قال: بل أعشقه منذ صغرى..

قال الرجل: ما رأيك لو تركت هذا العمل الشاق وتفرغت للغناء.؟

قال سيد درويش: كيف..

قال الرجل: أنا من الشـام وأمتلـك فرقة للتمثيل والغناء وأريدك أن تسافر معى لتغنى بين فصول الرواية على المسرح..

قبل الفتى هذا العرض بسـعادة غامرة ورحل إلى الشام فى مطلع عام ١٩٠٩ لكـن هذه الرحلـة كانت واحدة من حلقات فشـله المتصلة.. فلم يستمر فى الشام غير عشرة أشهر عاد بعدها إلى الإسكندرية بصعوبة.

لكنـه برغم عـدم توفيقه.. فإنه تعرف بلاشـك إلى ألوان أخرى من الموسيقى العربية الأصيلة..

لكنه عاود السفر مرة أخرى إلى الشام فى عام ١٩١٢ أى فى العشرين مـن عمـره.. وفى هذه الرحلة كان سـيد موفقا.. بل تعـد هذه الرحلة ميلادا حقيقيا له ولفنه.. فقد مكث هناك سـنتين كاملتين استمع فيهما إلى مئات الألحان التى يرددها الناس فى الشام..

ويعود سـيد درويش إلى الإسـكندرية فى عام ١٩١٤ وقد صار فنانا ناضجا واسع المعرفة..

وبدأ الفنان يؤلف ألحانا جديدة ويقدمها بنفسـه فى المقاهى الكبرى بالإسكندرية.. ثم هاهو يكوّن (تختا) موسيقيا من ضارب الرق.. وعازف الكمان.. وعازف الناى أو القانون.. ومنشـدين.. وصار سيد درويش فى فترة وجيزة مشهورا بتخته وألحانه..

وحينما زار الشـيخ سـلامة حجازى الإسـكندرية.. سمع عن سيد درويش فذهب إليه واسـتمع إلى ألحانـه وطلب منه أن ينضم إلى فرقته بالقاهرة.. ويرحل الفتى إلى القاهرة ظنا منه أن طاقة القدر قد انفتحت له على مصراعيها..

لكنه فوجئ فى الليلة الأولى التى وقف فيها على المســرح باستقبال سئ من الجمهور جعله يعود فى اليوم التالى إلى الإسكندرية مرة أخرى أشد سخطا على الظروف..

ومرة أخرى يزور سلامة حجازى وجورج أبيض الإسكندرية ويطلبان من سيد درويش إعادة المحاولة فى القاهرة..

ويلحــن الفتى الفنان ألحان مســرحية (فيروز شــاه) لفرقة جورج أبيــض.. وبالرغم من أن المســرحية لم تلق النجــاح المنتظر فإنها كانت بداية للفتى لشق طريقه إلى الشهرة والأصالة..

كان سيد درويش يرى نفسه خارجا من طبقات الشعب.. ولابد لموسيقاه أن تعبر عن هذه الطبقات.. ومن ثم كان يلتقط من أفواه الشعب مادته الفنية..

سمــع مرة عند مروره فى منطقة (الزهار) بحى بولاق بائعا صعيديا يقف إلى جــوار جدار وهو ينادى على نوع من أنواع البلح بنداء طريف فاستوحى منه لحنا مبتكرا على كلمات صديقه بديع طبرى..

ومن ثم شملت مســرحياته اســتعراضات الحرفيين مثل: السقايين والســودانية.. والرشــايدة.. والشــيالين.. والمجانين.. والحشاشين.. والشــعراء.. والمراكبيــة.. وأولاد الــذوات.. والعمــال.. والصنايعية.. والجزارين.. والحمارين.. والباعة على اختلاف طوائفهم..

وكانت ألحانه عن هؤلاء تصويرا صادقا معبرا عن خصائص كل طائفة من هذه الطوائف..

ومن أشهر ألحانه ما أخذه من فم مصطفى كامل الزعيم المصرى والذى يقول فيه:

بلادى بلادى بلادى لك حبى وفؤادى
مصر يا أم البلاد أنت غايتى والمراد
وعلى كل العباد كم لنيلك من أيادى

والذى تتخذه مصر اليوم نشيدا وطنيا لها.. وقد كان هذا النشيد على ألسنة الثائرين فى ثورة ١٩١٩ ضد الاحتلال الانجليزى..

وكانت مصر فى قلب سيد درويش فى معظم ألحانه.. ومن ذلك مثلا:

قوم يا مصرى مصر دايما بتناديك
خذ بناصرى ناصرى دين واجب عليك
يوم ما سعدى راح هدر قدام عنيك
عد لى مجدك اللى ضيعته بإيديك
شوف جدودك فى قبورهم ليل نهار
من جمودك كل عضمة بتستجار
صون أثارك ياللى ضيعت الأثار
دول فاتوا لك مجد خوفو لك شعار
ليه يا مصرى كل أحوالك عجب
تشكى فقرك وإنت ماشى فوق دهب
مصر جنة طول ما فيها إنت يا نيل
عمر ابنك ما يعيش أبدا ذليل

وفى مسـرحية شـهرزاد يعطى سـيد درويش الفرصة للطفل محمد عبد الوهاب ليقوم بالغناء على المسـرح.. لكـن الجمهور لم يتقبل ذلك لأن صوت الطفل كان رقيقا كالنبات..

لكن سـيد درويـش لم يكف عـن محاولاته.. فوضـع ألحانا لنحو عشرين مسـرحية غنائية من أشـهرها: البروكة - العشرة الطيبة - بنت الحاوى وغيرها.

ويتعرف إلى نجيب الريحانى ويعمل معه فى فرقته..

وحينما كان سـيد درويش يضع ألحانه.. كان يقضى سـاعات طويلة متجـولا فى الشـوارع.. وأحيانا أخرى يحبس نفسـه فى غرفته حتى ينتهى.. وينقطع تماما عن الناس..

وفى شـهر سبتمبر عام ١٩٢٣ بدأ الشـعب المصرى يحتفل بمناسبة مهمة يعبر فيها عن فرحته.. فقد أخلى سـبيل زعيم الأمة سعد زغلول وصحبه وهاهم قادمون من المنفى إلى ميناء الإسكندرية..

ويبدأ سـيد درويـش فى إعداد أوبريت وطنى بهذه المناسـبة وفيها تحية لسعد زغلول تقول:

مصرنا وطننا سعدها أملنا   كلنا جميعا للوطن ضحية

وبعد أن انتهى الفنان من التلحين.. أخذ يدرب المنشدين والموسيقيين على الأوبريت استعدادا لحفل الاستقبال المنتظر..

ويقرر أن يزور الإسـكندرية ويلتقى أهله قبل أن تصل باخرة الزعيم بيومين وفـى ليلة وصوله.. زار أصدقاءه ومحبيـه فى المدينة.. ثم عاد لينام لدى شقيقته..

وفى فجر يوم ١٥ سبتمبر ١٩٢٣.. دخلت شقيقته لتوقظه.. فاكتشفت أنه فارق الحياة..

وتصـاب مصر كلها فى فتاها الفنان الذى أرسـى وأحيا أصالة الغناء بعد أن كان الغناء مرتبطا بالسكارى والسهرات الحمراء..

وينعيه الكتاب والشعراء.. منهم عباس محمود العقاد وأمير الشعراء أحمد شوقى الذى يقول فيه:

بلبـل إسكنـدرى ليـس فى الأرض ولكـن فى السمـاء
هبـط الشاطـئ من رابيـة ذات ظـل ورياحيـن.. ومـاء
يحمـل الفـن نميرا صافيا غـدق النبـع إلى جبـل ظمـاء
يمـلأ الأشجـار تغريـدا إذا صرف الطير إلى الايك العشاء

حقا.. إنه ليس فى الأرض ولكن فى السماء..

وهكذا يرحل الفتى ابن الحادى والثلاثين عاما بعد أن ملأ الدنيا فنا أصيلا.. وصنع تاريخا جديدا فى الموسيقى العربية المعاصرة..



على مصطفى مشرفة.. رائد العلم الطبيعى

دمياط

تلك المدينة التى تقع عند مصب النهر الخالد.. حيث تلتقى مياه البحر الأبيض المتوسط المالحة.. مع مياه نهر النيل العذبة.. وكأن هذا اللقاء يرمز إلى التقاء التاريخ والحضارة بين الشعوب الكائنة على شواطئ المتوسط..

كان الفتى الصغير يخرج مساء كل يوم على شاطئ البحر.. يتطلع إلى المجهول.. وينظر إلى الأفق البعيد الذى يوهم الناظر بالتقاء السماء بالماء..

هنا يخفق قلب الفتى الصغير.. إنه يعلم أن بشرا مثله يعيشون هناك بعيدا خلف هذا الأفق..

إن الشمس وهى تودع الأرض إلى المغيب.. تعد الفتى الصغير بأنها سوف تشرق من جديد بنور جديد فى صباح جديد.. وهاهو الصبى يشير إليها ويلوح لها: إلى لقاء.. ولحظة لحظة يعم الظلام فتنتشر فوق المياه الممتدة يقع ضوء هنا وهناك ويدرك الفتى أنها أنوار السفن السابحة فوق الماء تتلألأ من بعيد..

ولا تلبث بدورها أن تغيب مثلما تغيب الشمس.. وتترك فى وجدان الفتى كثيرا من الأسئلة.. وكثيرا من الأحلام..

ويعود الفتى بعد أن ينهى تأملاته.. وفى طريق عودته يقابل أصدقاء فتيان مثله.. فينضم إليهم يلعبون ما يشاءون من اللعب: الكرة الشراب

تحت ضوء مصباح غازى.. أو لعبة عسكر وحرامية.. أو يستمعون إلى هذا الحكاء الظريف يحكى لهم قصة الشاطر حسن.. أو أدهم الشرقاوى..

وينتبه الفتى إلى أنه قضى وقتا طويلا بعيدا عن كتبه.. فيسرع إلى البيت ويعكف على مذاكرته.. فهو يوشك أن يتقدم إلى امتحان الشهادة الابتدائية..

وتظهر نتيجة الامتحان وكان ترتيبه الأول على أقرانه..

لكن أحداثا خطيرة تحدث فى مجال أسرته تنذره بالضياع..

لقد انفصلت أمه عن أبيه وتزوجت بغيره وهو لا يزال صغيرا.. ثم ما لبث الأب أن مات منتحرا إثر أزمة مالية حادة أودت بثروته الكبيرة..

وينتقل الفتى حاملا مأساته الشخصية ليعيش مع جدته لأمه فى القاهرة.. وهناك يلتحق بالمدرسة السعيدية بالقسم الداخلى بالمجان..

وهناك سأله سكرتير المدرسة:

- الاسم.. قال: على مصطفى مشرفة

- السن.. قال: اثنى عشر عاما

- ترتيبك فى الابتدائية.. قال: الأول على المدرسة

- الحالة الاجتماعية.. قال: أعيش مع جدتى لموت أبى وغياب أمى عنى.

هز الرجل رأسه متفهما.. فألحقه القسم الداخلى بالمجان..

أما إخوته فلم يكن لهم مصدر رزق سوى ماكينة خياطة متداعية وجدة أنهكها السهر لتوفر لهم القوت الضرورى.

وتنفصل الأم عن زوجها الثاني وتنضم إلى أسرتها في القاهرة لتتعاون مع الجدة في تحمل تربية الأطفال الصغار..

لقد ولد الفتى في ١١ يوليو ١٨٩٨ وهاهو يعبر مرحلة الإعدادية ويحصل على شهادة الكفاءة ويتخرج في مدرسة المعلمين العليا عام ١٩١٧.. وكان ترتيبه الأول أيضا.. فقد أحس بالمسئولية وهو صغير حينما فقد أباه وانصرفت عنه أمه.. وعليه أن يسابق الزمن..

ويحصل الفتى على منحة علمية.. فسافر إلى أوربا.. تلك البلاد المجهولة التي كان يحلم بها وهو واقف يتأمل الأفق البعيد فوق شاطئ المتوسط..

وفي عام ١٩٢٣ يحصل على درجة الدكتوراه في فلسفة العلوم وهو في الخامسة والعشرين من عمره..

جاء الفتى حاملا أرقى الإجازات العلمية.. لم يحصل عليها مصرى قبله.. وفي قلبه أحلام كبيرة تتجسد في التحاقه مدرسا بالجامعة..

ويلتقي مع الأستاذ أحمد لطفي السيد مدير الجامعة المصرية ويقدم له أوراقه لكن الرجل تعجب وتردد.. بل رفض أن يعينه مدرسا في الجامعة لصغر سنه.. ماذا يفعل الفتى.. وماذا عن أحلامه.. بل ماذا عن أسرته الفقيرة...؟

نصحه بعض الأصدقاء أن يذهب لمقابلة الزعيم سعد زغلول ويقدم له شكواه.. فانطلق إلى مجلس النواب وسأل عن رئيسه الزعيم سعد زغلول وظل ينتظره حتى وصل إلى مكتبه.. وسمح له بالدخول..

وجـد الفتى حامل الإجازة العلمية مـن الزعيم كل تقدير واحترام.. وعلى الفور تحدث مع أحمد لطفى السـيد فى هذا الشـأن قائلا له: إن صغر السن لا يحول دون الانتفاع بمواهب النابغين..

وهكذا عين مشـرفة مساعد أستاذ فى الجامعة ولم يبلغ سن الخامسة والعشرين من عمره..

ثم هاهـو ذا يتقدم فى سـلك التدريـس ليعين أسـتاذا للرياضيات بمدرسـة المعلمين العليا.. فأستاذا للرياضة التطبيقية بكلية العلوم عام ١٩٢٦ ثم عميدا للكلية.. ثم وكيلا للجامعة المصرية عام ١٩٤٨.

ونلاحـظ أنه فى عام ١٩٣٦ كان أول عميد عربى لكلية العلوم.. ومن أهم أعماله أنه أنشـأ قسما للترجمة العلمية بالكلية لأن الدراسة كانت بالإنجليزية.. وكان يهدف من وراء ذلك إلى ترجمة المراجع العلمية إلى العربيـة حتى يمكن تمصير الكلية والمعاهـد العليا بوجه عام.. وحتى تكون اللغة العربية هى لغة التعليم بدلا من الإنجليزية..

وجعل قسـم الرياضة التطبيقية الذى يرأسـه يدرس باللغة العربية فى السنتين الأولى والثانية..

كمـا شـجع الطلبة علـى تأليف الجمعيـات العلميـة بالكلية مثل الجمعيـة الرياضيـة الطبيعية.. وعمل على تشـجيع البحث العلمى.. وتبـادل الآراء العلمية بإنشـاء الجمعية المصرية للعلـوم والرياضيات الطبيعية.. والمجمع المصرى للثقافة العلمية.

وإلى جانب كل هذه الإنجازات كان فنانا عاشقا للفن.. يهوى الموسيقى والعزف على آلتى الكمان والبيانو.. كما أسس جمعية لهواة الموسيقى وكان من أهم أهدافها تعريب القطع العالمية.. وله بحوث فى السلم الموسيقى..

ويروى أنه كان فى باريس يحضر حفلا موسيقيا.. وفى أثناء العزف صدر منه صوت يعبر عن الاحتجاج.. وبعد انتهاء العزف حضر رئيس الأوركسترا وانحنى أمام مشرفة.. ولما سئل مشرفة تعليلا لذلك قال: إن رئيس الأوركسترا أخطا فى اتباع القواعد الأصولية فى العزف فاحتج عليه..

وكان مشرفة عاشقا للغة العربية والأدب العربى.. وقد ترجم إلى العربية كثيرا من أمهات الكتب العلمية.. كما نشر سلسلة من الكتب العلمية المبسطة بقصد نشر الوعى العلمى بين مواطنيه..

وكان أيضا فيلسوفا يؤمن بالمذهب المثالى فى حياته.. إلى جانب حبه للشعر.. بل كان يحفظ منه الكثير..

والحقيقة أن رجلا بهذه الثقافة الواسعة فى العصر الحديث نادر الوجود.. فهو إلى جانب ثقافته هذه عالم قدير فى مجال العلم الطبيعى.. بل يعد رائد هذا العلم فى العصر الحديث..

فللدكتور مشرفة ٢٦ بحثا مبتكرا يختص أغلبها بالشرح النظرى لجانب من ظواهر الطبيعة من حولنا.. ولهذا تعد هذه الأبحاث من الأسس الحديثة للطبيعة النظرية..

وهو يعد أيضا رائد علم الرياضيات لأنه عند مستوى البحث العلمى المتقدم لا توجد فروق بين الطبيعة النظرية.. والرياضة.. فهما يلتقيان فى مجال واحد ولهذا يطلق عليها (الرياضة التطبيقية).

كما عالجت بحوثه نظرية النسبية وميكانيكا الأمواج.. وكلها تخصص فيها بحثا وتدريسا..

وكان باكورة أبحاثه حينما عين مدرسا فى الجامعة.. يختص بنظرية الكم.. وهى النظرية التى تجمع بين فكرة نيوتن بأن الضوء ذرات دقيقة تنبعث من الجسم المضئ.. وتختلف حجومها تبعا لاختلاف اللون.. وفكرة هيجنز وأمثاله التى تقوم على فكرة أن الضوء موجات كهرومغناطيسية تختلف أطوال أمواجها باختلاف اللون كذلك..

وقد سجل مشرفة أبحاثه حول هذه المواضيع فى ديسمبر ١٩٢٩ ضمن نشرات المجمع الملكى البريطانى للعلوم..

وقد كتب مشرفة عدة مؤلفات أهمها:

- كتاب الميكانيكا العلمية والنظرية..
- كتاب الهندسة الوصفية..
- كتاب مطالعات عامة..
- كتاب الهندسة المستوية والفراغية..
- كتاب حساب المثلثات المستوية..
- كتاب الذرة والقنابل الذرية..

- كتاب العلم والحياة..
- كتاب الهندسة وحساب المثلثات..

كما حقق كتاب (الجبر والمقابلة) للخوارزمى.. وهو الكتاب الذى أظهر كيف سبق العالم العربى الخوازمى علماء العالم فى وضع علم الجبر..

وقد استطاع مشرفة بأبحاثه أن يوجد العلاقة بين المادة والإشعاع وهو القائل بأن المادة ما هى إلا إشعاع متجمد..

وكان لنظريته هذه هزة كبيرة فى الأوساط العلمية العالمية.

وفى عام ١٩٤٩ أصيب مشرفة بانهيار عصبى نتيجة التعب والإجهاد.. ففى أيامه الأخيرة كان يحضر دراسات وأبحاث لنيل جائزة نوبل فى العلوم.. وسافر إلى أوربا للعلاج وقرر الأطباء أنه فى حاجة إلى راحة طويلة فى سويسرا ولكن حكومات ذلك الحين أبت عليه هذا العلاج بتحويل العملات الأجنبية لإقامته الطويلة فى سويسرا فاضطر إلى العودة محطما من فرط الإعياء ليموت فى ١٦ يناير ١٩٥٠ ويرثيه أينشتين بقوله: إن وفاته خسارة جسيمة.. ويقول عنه العالم الدانمركى نيلز بور: كان مشرفة أستاذا بحق لقد كان أعظم علماء الطبيعة دون منازع.. ونحن بدورنا نقول: لقد أسهم فى صنع التاريخ العلمى العربى..

□□□

أم كلثوم.. طائر الفن الأصيل

يوما

كتب الدكتور مصطفى محمود يقول:

- أم كلثوم فى الغناء مثل طه حسين فى الأدب.. تمثل العربية الفصحى فى الأداء.. والإعراب السليم للحروف الغنائية.. والجزالة فى الصوت والنغم.. صوتها يشبه فى نقائه وشرقيته سلالة الخيول العربية الأصيلة.. وهى تخطر فى اختيال مثل الخيول فى رقصها أبهة وجلالا.. وفخامة.. وصوتها يذكرنى بمائدة حافلة من موائد رمضان.

أم كلثوم لها صفة غير أنها تغنى.. وتفلسف الحب.. وتمثل أعظم دار للنشر.. هى أقوى من ألف خط طيران يربط الأرض العربية.. وأقوى من أى خط تليفون.. وأقوى من ألف خط سكة حديد تمتد من بغداد والكويت وقطر شرقا.. إلى الدار البيضاء فى أقصى الغرب.. ومن القامشلى وحلب فى أقصى الشمال إلى عدن والخرطوم فى الجنوب..

إنها أقوى الأدلة على أن الوطن العربى يعيش فوق أرضه شعب واحد.. له عقل واحد.. قلب واحد.. وجدان واحد.. وذوق واحد.

ولم يكن د. مصطفى محمود وحده الذى كتب عن أم كلثوم بل كتب عنها كل أديب وصحفى منهم طه حسين والعقاد وعزيز أباظة وأحمد رامى.. وأحمد رجب وتوفيق الحكيم.. ومصطفى أمين.. ويوسف السباعى.. ومحمد عبد الوهاب.. وإبراهيم ناجى وغيرهم كثير..

وإذا كانت هذه الفنانة قد بــدأت رحلتها منذ نعومة أظافرها.. فإن مرحلة نضجها في شبابها ظلت شامخة معطاء.. حتى يوم رحيلها بعد ســتة وســتين عاما عاشــتها من أجل فنها الأصيل.. وغيرت بها مسار التاريخ الفنى العربى إلى الأفضل...

ولدت أم كلثوم إبراهيم البلتاجى فى بلدتها الصغيرة (طماى) التابعة لمحافظة الدقهلية فى عام ١٩٠٩.. وربما شاء أبوها أن يطلق عليها هذا الاسم تيمنا بأم كلثوم إحدى بنات النبى الكريم ﷺ ..

وكانت أمها فاطمة الباز من ســلالة ســيدى الباز أحــد أولياء مصر الصالحين..

وأم كلثوم هى أصغر إخوتها الأحد عشــر.. غــير أنهم توفوا أطفالا ولم يبق منهم سوى أختها الكبيرة وأخيها خالد..

أرسلها أبوها مع أخيها إلى الكتاب لحفظ القرآن الكريم.. فقد كان الأب قارئا للقرآن ومنشدا للقصائد الدينية إلى جانب كونه يزرع أرضا صغيرة..

وكان الأب مهتما بتعليم ولده خالد ترتيل المدائح النبوية والتواشيح لكى يساعده فى عمله.. وكانت الفتاة الصغيرة تنصت باهتمام إلى أبيها وهو يدرب أخاها وتحاول حفظ وترديد ما تسمع بينها وبين نفسها..

وفــى ذات يوم بينما كان الشــيخ إبراهيم يتجول قــرب الدار وصل سمعــه صوت ابنتــه ترتل القرآن بصوت عذب.. وتنشــد التواشــيح.. فتعجب ودخل الدار واكتشــف موهبة ابنته التى كانت فى العاشرة من عمرها آنذاك.

وبدأ الأب يقنع ابنته الصغيرة على مصاحبته في الليالى التى يحييها بعد أن جعلها ترتدى زى الصبيان.. إذ كان الناس وقتها لا تقبل الغناء من الفتيات الصغيرات.

غنــت أم كلثوم مع أخيهــا وأبيها فى أماكن كثــيرة حول قريتها.. وفى محافظة الشــرقية حتى ذاع صيتها بين الكبراء.. وبدأوا يطلبونها فى سهراتهم..

وفى الخامســة عشــرة من عمرها أقدمت الفتاة على تأليف القصائد والموشحات وغنائها.. ومن ذلك قولها:

تبـارك مـن تعــالى فى عــلاه　　يقـول للعبـد اطلبنى تجدنى
أنا المطلـوب فاطلبنى تجدنى　　وإن تطلب سواى فلم تجدنى
أنا المقصـود لا تقصـد ســواى　　كثير الخير فاطلبنى تجدنى
أنا الملك المهيمـن جـل قدرى　　عظيم الخير فاطلبنى تجدنى

وتــروى أم كلثوم حدثا مهما فى حياتها كان نقطة تحول فى فنها.. ذلك هو لقاؤها مع الشيخ أبى العلا محمد.. تقول:

- كنت أغنى بلا إحســاس ولا شــعور.. فقد كنت أردد الأغانى التى أسمعهــا من أبى بنفــس الطريقة التى يرددهــا التلميذ الصغير لجدول الضرب.. وقواعــد النحو والصرف.. ثم غيرنى فونوغراف العمدة.. فقد سمعت من خلاله صوت الشــيخ أبى العلا محمد.. وهزنى صوته.. كنت أشــعر أنه يغنــى لى وحدى خاصة حينما يغنــى (أفديه إن حفظ الهوى أوضيعه) أو (وحقك أنت المنى والطلب) أو (غيرى على السلوان قادر).

ويجئ يوم تلتقى فيه أم كلثوم مع الشيخ أبى العلا على محطة السنبلاوين فألحت عليه أن يزور قريتها (طماى الزهايرة).. فاستجاب الشيخ..

وفى بيت أبيها استمع الشيخ لصوت الفتاة واقترح على أبيها أن يرحل بها إلى القاهرة قائلا:

- إن مستقبل ابنتك أكبر من طماى.. وحرام عليك تحبس هذه الموهبة فى قرية صغيرة.

كانت أم كلثوم فى الرابعة عشرة من عمرها حينما انتقلت الأسرة إلى القاهرة وبالطبع لم تكن الأرض مفروشة بالورد.. فقد لاقت الصعاب لتأكيد وجودها فى الوسط الفنى الذى كان يسيطر عليه أصوات راسخة مثل منيرة المهدية وفتحية أحمد..

وهاهى ذى تخلع قناع الصبية بعد أن اكتملت أنوثتها ونضج صوتها.. وبدأ أبوها يصحبها لإحياء الحفلات الخاصة والموالد والأفراح.. وبدأت تتلمذ على أيدى أساتذة الفن منهم: أبو العلا محمد.. ومحمود رحمة.. وتعلمت العزف على العود.. والتقت بالشاعر الكبير أحمد رامى وغنت له فى البداية: الصبّ تفضحه عيونه..

ويتولى أحمد رامى تثقيف الفتاة على الشعر والأدب..

وجاء عام ١٩٤٢ لتصدر لها اسطوانات ببعض مقطوعاتها مثل: خايف يكون حبك لى شفقة على.. ما لى فتنت بلحظك الفتان.. أيها الفلك على وشك الرحيل..

وتمـوت أمها بمرض القلب فتحزن عليها حزنا شـديدا.. ولما توفى أبوها كانت أم كلثوم قد تربعت على عرش الغناء العربى..

وحينما بلغت السادسة والعشرين من عمرها (١٩٣٥).. بدأت مرحلة ثانية جديدة من تاريخها الفنى.. واستدعت كبار الملحنين وكبار المؤلفين لتغنى لهم مثل: محمد القصبجى – وزكريا أحمد.. ورياض السنباطى.. وأحمد رامى.. ومأمون الشناوى.. وغيرهم..

لقـد وجدوا فى صوتها معجـزة كبيرة.. فلا شـىء يصعب عليها.. ولا لحن يخشـى عليها من عدم أدائه.. لكن صوتها يسـتطيع أن يؤدى أصعب الألحان وأقواها..

وكانـت أم كلثوم عـام ١٩٣٤ قد افتتحت الإذاعـة المصرية بصوتها الجميل وتعاقدت معها الإذاعة على إحياء حفلين فى الشهر يذاعان من الاسـتوديو فى مقابل أجر قدره خمسـة وعشرين جنيها عن كل حفل.. وتغنى فـى كل حفل وصلتين.. ثـم ارتفع هذا الأجر عـام ١٩٣٦ فبلغ أربعين جنيها ثم زاد إلى خمسين جنيها..

ثـم اقترحت على الإذاعـة أن تقيم لهـا حفلات خارجيـة ينقلها الميكروفـون مـن أحد المسـارح.. وقدمت أم كلثوم أول حفـل مذاع على الهواء من مسرح دار الأوبرا فى ٧ يناير ١٩٣٧.. بفرقتها الخاصة..

وبدأ صوت أم كلثوم يتسلل إلى وجدان كل عربى من المحيط إلى الخليج.. بل بدأ يوم الخميس من كل شهر يعلن عن سهرتها الشهرية فيلتف كل العرب حول جهاز الراديو فى متعة فنية رفيعة المستوى..

وهاهى ذى تغنى الشعر التراثى.. وتغنى الشعر المعاصر.. وتغنى الفصحى والعامية.. وتتعدد ألوان وقوالب الغناء لتصير أم كلثوم موسوعة الفن الأصيل حقيقة..

وفى عام ١٩٤٠ تأسست فى مصر نقابة الموسيقيين وانتخبت أم كلثوم رئيسة لها وظلت فى هذه الرياسة حتى عام ١٩٥٣..

ثم هاهى ذى تلتفت نحو السينما وتمثل ستة أفلام غنائية لاقت رواجا كبيرا فى العالم العربى هى: وداد- فاطمة- سلامة- نشيد الأمل- عايدة- دنانير..

لكنها لم تستمر فى التمثيل لأنها تدرك تماما أنها خلقت للغناء.

وقد لحن لأم كلثوم ملحنون كثر.. ففى عام ١٩٢٤ تعرفت على ملحن هاو هو طبيب الأسنان الدكتور أحمد صبرى النجريدى.. الذى كان يعيش فى طنطا.. والذى يبدو أنه امتداد للشيخ أبى العلا محمد..

وقد لحن لها النجريدى ما يقرب من أربع عشرة أغنية سجلتها جميعها على أسطوانات من بينها: شفت بعينى - خايف يكون حبك لى - طلع الفجر ولاح - الحب كان من سنين وغيرها.

ومن ملحنى أم كلثوم أيضا داود حسنى الذى تخرج على يديه كبار الفنانين منهم: عبد المطلب - أسمهان - ليلى مراد.. وكانت أم كلثوم تغنى له ما بين عامى (١٩٣٠ - ١٩٣٥) أدوارا وطقاطيق كثيرة..

والتقت أم كلثوم مع سيد درويش لكن القدر لم يسعف سيد درويش حتى يتعاون معها..

وكانت الساحة الفنية تشهد منافسة بين منيرة المهدية وفتحية أحمد وأم كلثوم.. انتهت أخيرا لصالح أم كلثوم..

وحينما ظهر نجم محمد عبد الوهاب.. كانت هناك منافسة خفية بينهما وجرت محاولات عدة للجمع بينهما فى أعمال مشتركة.. اشترك فيها الزعيم جمال عبد الناصر.. ومصطفى أمين وطلعت حرب وآخرون.. وتأخر هذا اللقاء حتى عام ١٩٦٤ حينما غنت أم كلثوم (إنت عمرى) بكلمات أحمد شفيق كامل وتلحين عبد الوهاب.

ثم توالت الأعمال المشتركة بينهما حتى بلغت عشرة أعمال منها : أمل حياتى - فكرونى - إنت الحب - وهذه ليلتى - أغدا ألقاك..

أما محمد القصبجى فقد استمع إليها لأول مرة عام ١٩٢٣.. وصار بعد ذلك من أفراد فرقتها.. ومن بين ألحانه لها : رق الحبيب - الشك يحيى الغرام - خيالك فى المنام حلمى - ياما نديت من أساى.. وعدد كبير من الألحان.. لمؤلفين كبار مثل أحمد رامى وبيرم التونسى.

وهذا زكريا أحمد الذى كان عام ١٩٢٠ يحيى ليلة رمضانية فى السنبلاوين فاستمع إلى أم كلثوم وأعجب بصوتها.. وزار بيت أبيها.. ثم بدأ يلحن لها أعذب الألحان منها : حبيبى يسعد أوقاته - أنا فى انتظارك.. الأولة فى الغرام.. وبلغت ألحانه لها نحو تسعين لحنا.

أما رياض السنباطى فكان له من ألحانها نصيب الأسد.. وكانت بداية لقائهما عام ١٩٣٦ حينما لحن لها من كلمات أحمد رامى (النوم يداعب عيون حبيبى)..

وقدمتها أم كلثوم فى حفلها الشهرى (أكتوبر ١٩٣٧) على مسرح إيوارت بالجامعة الأمريكية.. وبعد نجاح اللحن انضم رياض السنباطى إلى ملحنى أم كلثوم.. وكان أشهر ألحانه لها القصائد الشعرية مثل رباعيات الخيام - وسلوا قلبى - ونهج البردة - ومصر تتحدث عن نفسها - وعرفت الهوى - وقصة الأمس - وأغار من نسمة الجنوب - أصون كرامتى - وثورة الشك - الأطلال..

أما أغانيه فهى كثيرة منها: على بلد الحبوب - افرح يا قلبى - هلت ليالى القمر - سهران لوحدى - يا ظالمنى - جددت حبك ليه - أروح لمين - عودت عينى - حيرت قلبى.....

ولأن أم كلثوم تمتلك روحا شابة متألقة.. وتتطلع إلى الجديد دائما بدأت تستعين بملحنين شباب مثل محمد الموجى - بليغ حمدى - كمال الطويل - سيد مكاوى..

كما استعانت أيضا بمؤلفين جدد مثل: عبد الوهاب محمد - عبد الفتاح مصطفى - نزار قبانى - كامل الشناوى - صلاح جاهين - مرسى جميل عزيز..

وهاهى ذى تستعين أيضا بمؤلفين عرب مثل: عبد الله الفيصل - أحمد العدوانى - جورج جرداق - وغيرهم..

صارت أم كلثوم أحد أعمدة الغناء العربى.. بل هى الهرم الرابع لمصر.. ومن ثم لم تكن تمتلك صوتا فحسب وإنما امتلكت ثقافة وقدرة على التغيير.

وقد كرمـت أم كلثوم عدة مرات.. فحصلت على وسـام الجمهورية الكبـير.. وكانت أول فنانة عربية تغنى فـى باريس (نوفمبر ١٩٦٧) على مسرح أولمبياد.. وحينما كانت تذهب للغناء فى بلد عربى أو أجنبى كانت تلقى من التكريم والأوسمة والنياشـين ما لم ينله فنان من قبل.. ومن ذلك:

- نيشان الكمال من مصر عام ١٩٤٤.
- وسام النيل..
- نيشان الرافدين من الدرجة الأولى من الملك فيصل ١٩٤٦.
- وسام الأرز اللبنانى ١٩٥٥.
- وسام النهضة من ملك الأردن ١٩٥٥.
- وسام الجمهورية من تونس ١٩٦٨.
- وسام الكفاءة العسكرى المغربى.
- جائزة الدولة التقديرية فى الفنون ١٩٦٨.
- فنانة الشعب عام ١٩٧٢.

ويداهم أم كلثوم المرض.. وتسـافر للعلاج أكثـر من مرة.. وترحل عن عالمنا فى ٣ فبراير عام ١٩٧٥ تاركة لنا عطاء ثريا لم ينجزه فنان مثلها.

لقد كانت أم كلثوم فتاة شـابة بفنها وحيويتها حتى آخر لحظة من حياتها.. واستطاعت بفنها الخلاق أن تصنع تاريخا جديدا للفن العربى يخلد على مدى الزمان.

□□□

مارتن لوثر كينج.. ومقاومة التفرقة العنصرية

صعد الفتى الأسود إحدى المركبات ثم جلس على أقرب مقعد خال.. وظن أنه لن يقوم من مكانه حتى يصل إلى محطته الأخيرة..

وتوقفت المركبة ليستقلها فتى أبيض.. لكنه لم يجد له مكانا يجلس فيه.. فذهب إلى السائق وهمس فى أذنه.. وعلى الفور توقفت المركبة وقام السائق من مكانه متجها إلى حيث يجلس الفتى الأسود.. وبلهجة آمرة قاسية أمره بالوقوف وترك مكانه للفتى الأبيض.. حاول الفتى الأسود أن يماطل فى تنفيذ الأمر فإذا بعدد من ركاب المركبة ينظر إليه شزرا.. مما جعل الفتى الأسود أن يشعر بالخطر.. وفضل أن يقوم ويخلى مكانه للفتى الأبيض..

هكذا كانت حال السود الذين يعيشون فى أمريكا.. بل كان الأمر لا يخلو من السخرية فيطلقون عليهم (النسانيس السود) بل كان الأمر يزداد سوءا ليس فقط فى المركبات ولكن فى أى مكان آخر.. فالأبيض مفضل دائما عن الأسود.. وكلمة منه يصدقها الشرطى حتى لو كان كاذبا.. وكثيرا ما كان يرى السود وقد قبض عليهم من الشرطة بتهمة مخالفة القوانين..

وفى ١٥ يناير عام ١٩٢٩ يشهد العالم ميلاد رجل أسود استطاع بعد مقاومة سليمة طويلة أن يقضى على هذه العنصرية القاسية التى كانت تسود أمريكا..

ولد فـى هذا التاريخ مارتن لوثر كينج جونيـور.. ورحل عن العالم في ٤ إبريل عام ١٩٦٨.

وهو من أصول أفريقية.. ويوم ولادته سـادت أسرته حالة من التوتر والخـوف.. وجلـس الأب كينج يصلى من أجل زوجتـه (ألبرت) التى تعانى أشـد العناء فى حملهـا للطفل.. ومضت سـاعات طوال من هذه المعاناة حتي ولد الطفل مارتن لكنه لم يكن مثل الأطفال يصيح أو يبكى.. بـل بدا كأنه ولد ميتا.. وظـل الطبيب يحاول مع الطفل حتى صدر منه صراخ واهن إثر صفعة شديدة من الطبيب..

كانت جذوره أفريقية.. بيع جدوده إلى بيض أمريكا لكى يستعبدوهم فى خدمتهم والقيام بالأعمال الشاقة التى لا تليق بالبيض..

وتتفتح عينا الطفل على مظاهر غريبة فى مدينته (أتلانتا).. وكثيرا ما جلس الطفل فى عزلة عن أسرته لعله يجد تفسيرا لهذه الحالة التى يعيشها السود من الذلة والهوان..

ويحـاول الطفل مارتـن أن يلعب مع الأطفال البيـض.. لكن أمهات البيض كن يمنعن أبناءهن من مشاركته اللعب..

ويعود الطفل إلى البيت شـاكيا لأمه ما يحدث.. فتبتسم الأم وتربت على صدره وتقول:

– لا تدع هذا يؤثر عليك يا ولدى.. بل لا تدعه يجعلك تشعر أنك أقل من البيض.. فأنت مثلهم.. ولا تقل عن أى شخص آخر..

وتمضى الأيام ويلتحـق مارتن عام ١٩٣٥ بالمدارس العامة ومنها إلى مدرسة العمل الخاص بجامعة أتلانتا.. ثم بمدرسة (بوكر واشنطن).

وكان مارتن قد عزم على منافسة البيض.. والتفوق عليهم فى كل شئ.. ومن ثم التحق بالجامعة عام ١٩٤٢ حيث درس بكلية (مورهاوس) التى ساعدت على توسيع إدراك الفتى.. وفهم العالم من حوله..

وفى عام ١٩٤٧ عين مساعدا فى كنيسة أبيه.. ثم حصل على ليسانس الآداب عام ١٩٤٨ ولم يكن عمره يزيد على ١٩ سنة.. وحينها التقى فتاة زنجية فأحبها وتزوجها فى عام ١٩٥٣..

ثم حصل مارتن على الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة واشنطن..

كانت رحلة نضال من أجل التفوق.. ومن أجل تحقيق نبوءة أمه بأنه لا يقل عن غيره من البشر فى عقله.. وتفوقه..

وحدث فى يوم الخميس الأول من ديسمبر عام ١٩٥٥ أن رفضت إحدى السيدات السود أن تخلى مقعدها فى إحدى المركبات لراكب أبيض.. فما كان من السائق – كما اعتاد – إلا أن استدعى رجال الشرطة الذين ألقوا القبض على السيدة بتهمة مخالفة القوانين.. ومن هنا كانت البداية..

احتقن السود على إثر هذا الموقف المشين.. وأنذرت الأوضاع برد فعل عنيف لولا مارتن لوثركنج.. هذا الفتى الذى هدأ من المحتنقين.. ودعاهم إلى المقاومة السلمية التى تعتمد على اللاعنف.. على طريقة الزعيم الهندى المهاتما غاندى..

وكان مارتن يستشهد دائما بقول السيد المسيح عليه السلام:

– أحبوا أعداءكم.. واطلبوا الرحمة لمن يلعنونكم وادعوا الله لأولئك الذين يسيئون معاملتكم..

ويستجيب لهذه الأفكار العاقلة أصدقاؤه السود ذوو الأصول الإفريقية..

وبدأت الحملة المخططة بمقاطعة السود لشركة الحاملات التى تنقل الركاب.. واستمرت نحو عام كامل أثر تاثيرا كبيرا على إيراداتها.. حيث كان السود الأفارقة يمثلون ٧٠٪ من ركاب خطوط الشركة..

لم يكن هناك ما يدين مارتن لوثر.. ولا توجد تهمة يمكن أن تلصق به فيقبض عليه ويدخل السجن..

لكن الشرطة دائما لا تعجز عن إلصاق أية تهمة لأى إنسان..

فوجئ السود بالقبض على زعيمهم الفتى المناضل بتهمة قيادة سيارته بسرعة ٣٠ ميلا فى منطقة لا يجوز فيها أن تزيد السرعة على ٢٥ ميلا..

كانت فرصة ذهبية للشرطة.. ولهذا قبض على مارتن وأودع زنزانة مع مجموعة من السكارى واللصوص والقتلة.. وكان هذا أول اعتقال لمارتن أثر فيه بالغ الأثر.. حيث شاهد داخل المعتقل نماذج من البشر لم يكن يستطيع أن يتأملها لولا هذه الفرصة من الاعتقال..

وأفرج عن مارتن بالضمان الشخصى.. فخرج يحمل فى داخله أفكارا أشد تأثيرا وقوة..

وحدث أن وضعت الشرطة عينها عليه.. وبدأت أسلوب التضييق والاضطهاد.

وفى يوم فوجئ مارتن بقنبلة تلقى على منزله كاد يفقد بسببها زوجته وولده.. وحين وصل إلى بيته وجد جمعا غاضبا من الأفارقة السود مسلحين على استعداد للانتقام..

ويقف مارتن خطيبا فى هذا الجمع قائلا:

- دعوا الذعر والعنف جانبا.. ولا تفعلوا شــيئا يمليه عليكم شعور الانتقام فنحن لا ندعو إلى العنف..

وبالرغم من ذلك ألقى القبض عليه ومعه مجموعة من القادة البارزين بتهمة الاشــتراك فى مؤامرة لإعاقة العمل دون ســبب قانونى بســبب المقاطعة.. واســتمر الاعتقال إلى أن قامت أربع سيدات من أصل أفريقى بتقديــم طلب إلى المحكمة الاتحادية لإلغــاء التفرقة فى الحافلات فى بلدة (مونتجمرى).

وبعد عدة جلســات صاخبة تصدر المحمة حكمهــا التاريخى الذى ينص على عدم قانونية هذه التفرقة العنصرية..

وهنــا يطالب مارتـــن أنصاره إنهــاء مقاطعة المركبــات والعودة إلى استخدامها بتواضع ودون خيلاء.. وأفرج عنه لذلك..

وفى يونيه عام ١٩٥٧ صار مارتن لوثركنج أول وأصغر قسيس يحصل على ميدالية (سينجارن) التى تمنح سنويا للشخص الذى يقدم إسهامات فعالة فى مواجهة العلاقات العنصرية.. وكان فى السابعة والعشرين من عمره.. ويقف مارتن بهذه المناســبة أمام نصب إبراهام فرنكلين يخطب أمام آلاف الأنصار ويهاجــم الحزبين الجمهورى والديموقراطى مرددا صيحته المشهورة: اعطونا حق الانتخاب..

وتنجح مســاعى مارتن.. ويسجل خمسة ملايين أنفسهم فى سجلات الناخبين فى الجنوب لأول مرة فى تاريخ السود والأمريكان..

وحين تولى جون كيندى الرياسة.. ضاعف مارتن من جهوده لإقحام الحكومة الاتحادية في المشكلة العنصرية.. لكن كيندى استطاع ببراعة السياسي أن يتفادى هجمات مارتن الذى كان لا يتوقف عن وصف الحكومة بالعجز عن حسم الأمور الحيوية فى المجتمع الأمريكى..

ومن ثم قرر مارتن فى أواخر صيف ١٩٦٣ بدء سلسلة من المظاهرات فى (برمنجهام) يعبئ فيها الشعور الاجتماعى فى مشكلة العنصرية..

وتقع معركة شرسة بين السود المتظاهرين ورجال الشرطة البيض الذين اقتحموا صفوف السود بالعصى والكلاب البوليسية..

وأصدر القضاء الأمريكى أمرا يمنع كل أنواع الاحتجاجات والمسيرات الجماعية والاعتصامات.. فقرر مارتن - لأول مرة فى حياته - أن يتحدى هذا الأمر الصادر من المحكمة.. وقاد مظاهرة كبيرة بهتاف واحد هو (حلت الحرية فى برمنجهام)..

ويلقى القبض على مارتن لوثر ليودع سجنا انفراديا..

وحينما خرج بكفالة واصل قيادته للحركة.. ورأى أن يلخص فكرته فى سؤال واحد هو: ماذا أنت صانع بالأطفال؟

فلم يكن وقتها إلا القليلون الذين على استعداد لتحمل مسئولية مقتل طفل.. إلا أنه نقل الإجابة عن هذا السؤال من المستوى النظرى إلى المستوى العملى.. فجعل آلاف الأطفال يحتلون الصفوف الأولى فى مواجهة الشرطة والمطافئ وكلاب الشرطة.. فارتكبت الشرطة أكبر خطأ فى تاريخها حين استخدمت القوة والعنف ضد الأطفال الذين لم يزد

عمر بعضهم على السادسة.. وانتشرت فى أرجاء العالم صور الشرطة والكلاب تنهش الأطفال..

وبهذا نجح مارتن فى تصعيد الأزمة.. فلجأ البيض إلى تكوين لجنة للتفاوض مع زعماء الأفارقة..

وبعد مفاوضات طويلة شاقة.. تمت الموافقة على برنامج ذى مراحل يهدف إلى إلغاء التفرقة العنصرية وإقامة نظام عادل للجميع.. والإفراج عن المتظاهرين.

ولم يكن الأمر سهلا.. لكن حدثت مصادمات كثيرة استخدم فيها الرصاص الحى.. ودمرت فيها مبانى وسيارات.. فأعلن الرئيس كيندى حالة الطوارئ فى القوات المسلحة.

ويتحد مارتن لوثر مع زعماء الأمريكان الأفارقة ومنهم زعيم المسلمين الأفارقة (مالكوم إكس) لمواجهة العدو المشترك.

وفى عام ١٩٦٣ قام الأفارقة بثورة غير مسبوقة اشترك فيها نحو ٢٥٠ ألف شخص منهم ٦٠ ألفا من البيض الذين يناصرون حقوق السود.. وهاهم أولاء يتجهون نحو نصب لينكولن التذكارى.. وهناك ألقى مارتن لوثر أروع خطبة فى الجماهير قائلا:

- إنى أحلم.. لدى حلم بأن يوما من الأيام سيعيش أطفالى الأربعة بين شعب لا يكون فيه الحكم على الناس بألوان جلودهم.. ولكن بما تنطوى عليه أخلاقهم..

ووصف مارتن المتظاهرين كما لو كانوا قد اجتمعوا لاقتضاء دين مستحق لهم.. ولم تف أمريكا بسداده (فبدلا من أن تفى بشرف لما

تعهدت به أعطت أمريكا الزنوج شـيكا بدون رصيد.. شـيكا أعيد وقد كتب عليه: إن الرصيد لا يكفى لصرفه)..

وذاع صيت مارتن لوثر كينج فى كل مكان فى العالم.. حتى إن مجلة تايم أطلقت عليـه (رجل العام) فكان أول إفريقى يمنح هذا اللقب.. ثم حصل عام ١٩٦٤ على جائزة نوبل للسـلام لدعوته إلى اللاعنف.. فكان بذلك أصغر رجل فى التاريخ يفوز بهذه الجائزة (٣٥ عاما).

ولم يتوقف عن مناقشـة قضايا الفقر للزنـوج والقضايا الأخرى التى يعانون منها..

وفـى الرابع من إبريل عـام ١٩٦٨ اغتيلت أحـلام مارتن لوثركينج ببندقية أحد المتعصبين البيض ويدعى (جيمس إرل راى)..

لكـن مارتن لوثر لم يمت.. فقد اسـتطاع أن يغـير التاريخ ويجعله يتجه فى بوصلته إلى السـود.. ويعتقـد أن التفرقة العنصرية التى كان يدعـو لوثر لمقاومتها قد انتهت بلا رجعة حينمـا فاز باراك أوباما ذو الأصل الإفريقى بالانتخابات الرياسية فى يناير ٢٠٠٩.



يورى جاجارين.. ودهشة الأفق

أعلن في الصحف المصرية عن زيارة أول رائد للفضاء لمصر في يناير ١٩٦٢.. وأعد المسئولون له برنامجا مكثفا لزيارة آثار مصر.. ومنجزات الثورة.. ويصل رائد الفضاء.. ويستقبله الزعيم جمال عبد الناصر.. على مائدة عشاء.. ويتيح له زيارة الأهرامات والسد العالى وآثار مصر في أماكن كثيرة.. ويهديه في احتفال لائق قلادة النيل وهو أرفع وسام في الدولة..

ويطوف الفتى بلادا كثيرة منها بريطانيا وفرنسا والهند والبرازيل وغيرها.. وكان يستقبل على مستوى الرؤساء والملوك ويمنح أعلى الأوسمة والهدايا.. لكونه أول رجل مقتحم لغموض الفضاء..

ولد يورى الكسيافيتش جاجارين في ٩ مارس عام ١٩٣٤ وتوفى يوم ٢٧ مارس عام ١٩٦٨.. وبالرغم من عمره القصير هذا.. فكان يكفيه فقط ما حققه في أيام قليلة دار فيها حول الأرض في أول مركبة فضاء سوفيتية..

تقع بلدته (كلوشنيو) بالقرب من غرب موسكو.. وكان أبوه يعمل بالنجارة وأمه كانت ربة بيت تزبى أطفالها..

وكما هي العادة.. يلتحق الصبى بإحدى مدارس البلدة.. وكان متفوقا في دراسته لكنه كان يحمل في داخله الحزن والأسى وهو يشاهد هتلر

وقواته النازية تكتسح بلاده.. وهاهو ذا يفقد اثنين من أشقائه في هذه الحرب اللعينة..

كانت الأسرة تتكون من الأب والأم ومن أولاد أربعة.. ثلاثة إخوة وأخت كبرى كانت معنية بتربيته لغياب والديه معظم الوقت.. فالأب يعمل نجارا والأم مشغولة بأعمال البيت وربما تمارس بعض الأعمال الأخرى التي تجلب بعض المال لمساعدة الأب.. وتلك كانت حياة كل الأسر السوفيتية التي تنتمي إلى هذه الطبقة المتوسطة..

وصفه مدرسوه بأنه كان نشيطا ذكيا مجتهدا متفانيا في مذاكرته وتحصيله.. وبعد انتهاء الحرب التحق جاجارين بالمدرسة الثانوية ثم بمركز التأهيل المهني ثم بالمدرسة الفنية الصناعية..

وكان يعمل في أحد مصانع الحديد والصلب متدربا.. ثم تم اختياره لبرنامج تدريب آخر في معهد التكنولوجيا في مدينة سرتوف..

ومنذ صغره والفتى يتمنى أن يكون طيارا.. وكثيرا ما كان يصنع الطائرات الورقية.. ويصعّدها فوقه بالخيط إلى أعلى.. ويستمتع بها وهي تقاوم الرياح.. كما كان يأتي بالورق ويشكل منه ما يشبه الطائرة ويقذفها إلى أعلى لتهبط أمامه في أي مكان..

كان سر الطيران غامضا بالنسبة إليه.. ومن ثم التحق بنادي الطيران وأخذ يتدرب على التحليق بالطائرات الخفيفة.. وبدأ اهتمامه بهذه الهواية القديمة يزداد ويشغل معظم وقته حتى استطاع في فترة وجيزة استيعاب الكتب الخاصة بالطيران.. وصناعة نماذج للطائرات.. وإتقان هذا الفن.

وفي عام ١٩٥٥ مكنته هذه المعرفة الواسعة من الالتحاق بالكلية الحربية للطيران في أورنبيرج.. وتخرج فيها بعد سنتين.

وفي هذه الكلية التي كانت تضم الفتيان والفتيات تعرف على (فالنتينا جوريشيفا) وتزوجا عام ١٩٥٧.

وكان طموح جاجارين يسبقه دائما.. ولهذا طلب تدريبه على طائرة ميج (١٥) وعمل في قاعدة جوية بالقرب من الحدود النرويجية في إقليم مورمانسك.

وفي عام ١٩٦٠ بدأ العاملون على برنامج الفضاء السوفيتي يسابقون الزمن للصعود إلى الفضاء..

لقد أتموا كل شئ.. وبقي اختيار من يصعد في المركبة..

كان جاجارين طيارا ماهرا.. حقق طموحه القديم في الطيران.. لكنه مع ذلك لم يتوقع أكثر مما حققه.. لكن الأمور انطلقت في اتجاهه فقبض عليها بكلتا يديه وبعقله.. وبإمكاناته الشبابية..

بدأ برنامج الفضاء السوفيتي بعمليات بحث دقيقة للعثور على الأشخاص المناسبين لتدريبهم وتجهيزهم لمهمة خطيرة سوف تغير العالم.. وتجعل الاتحاد السوفيتي يسبق أمريكا في أبحاث الفضاء..

تقدم إلى هذا البرنامج ما يقرب من خمسة عشر ألف متطوع.. وكان على العلماء أن يختاروا من بينهم متطوعا واحدا يتميز بقدرة فائقة على العمل والحركة.. وقوة عضوية.. وثبات أعصاب.. وخلو من أي أمراض.. وشجاعة في مواجهة أي موقف.. ودراية علمية بالطيران وفنونه..

صفـات قد لا تتوفر جميعها في شـخص واحد.. لكـن العلماء كانوا مصرين علىٰ اكتمال هذه الصفات في الشخص المختار.

وكان برنامج التدريب على أعلى مسـتوى من الفن والعلم معا.. ومن ذلـك الطيران في ظروف انعدام الجاذبية.. والبقاء مدة طويلة في مكان عازل للصوت.. والقفز بالمظلات.. وغير ذلك من المهام..

ويتقـدم جاجاريـن إلى هـذا البرنامج.. ويتسـع طموحـه.. وتكبر أحلامه.. وبعد فترة تدريب طويلة.. وقع الاختيار على عشرين شخصا كان جاجارين من بينهم..

كانت الاختبارات قاسـية مجهدة شملت اختبارات جسدية ونفسية لضمان نجاح المهمة..

وانتهى الأمر إلى شخصين هما : يوري جاجارين وجيرمان تيتوف.. لكن العلماء يريدون واحدا من الاثنين..

وبـدأت الموازنة بينهما.. ليصير جاجارين هـو المختار لكونه أكثر تميزا في التدريب والاختبارات وتمتعه بشخصية محببة..

كانـت فرحة جاجارين لا تقدر.. وهاهو يودع زوجته وطفلتيه في فجر يوم الاثنين ١٠ أبريل ١٩٦١.. واستقل سيارة عسكرية إلى المركز الرئيسـي لوحدة الفضاء السـوفيتية.. وروحه المعنوية تحلق وتسبقه إلى الفضاء..

وفي القاعدة تلقى التعليمـات.. وبدأ ينام بنظام ويأكل بنظام.. وفي السـاعة السادسة من صباح الأربعاء ١٢ أبريل ١٩٦١ استيقظ جاجارين

وبـــدأ يتلقى آخر التعليمات للعلماء والمهندســين.. وهاهو ذا يصعد إلى القمرة وهو يحيي مودعيه قائلا:

- أصدقائـــى الأعزاء.. أيها الأخوة المواطنون.. أيها الناس فى جميع البلدان والقارات.. بعد دقائق قليلة ســتحملنى سفينة فضاء جبارة إلى أعماق الكون الرحبة.. فماذا عســاى أقول لكم.. إن حياتى تبدو لى الآن كأنها لحظة واحدة رائعة.. وسوف أجمع إرادتى لأنفذ هذه المهمة على خير وجه.. إننى أفعل ذلك من أجل الشعب السوفيتى..

وفى التاسعة وست دقائق ينطلق الصاروخ حاملا سفينة الفضاء وبداخلها فتى يبلغ من العمر سبعة وعشرين عاما إلى رحلة فضاء مجهولة.

وفى الفضاء كان الاتصال بـــين جاجارين والعلماء لا ينقطع.. حتى هبطت الســفينة فى الســاعة العاشــرة والدقيقة الخامسة والخمسين صباح اليوم نفســه.. وبها جاجارين ســالما معافـــى.. بعد أن دار دورة حول الأرض.

وكان يـــوم الجمعـــة ١٤ أبريل يوم الاســتقبال للبطل فى موســكو.. فقد تجمع الشــعب الســوفيتى يحمل الزهور ليحيى جاجارين.. وفى مقدمتهم رئيس الوزراء خروشوف.. الذى يعلن جاجارين بطلا قوميا.. وترقيته من مساعد أول إلى رائد..

لقد أعجب نيكيتا خروشــوف بمـــا تم فى هذه المهمة.. وهذا النجاح الباهر غير المسبوق.. وأمر بزيادة الإنفاق لتطوير الترسانة الصاروخية السوفيتية على حساب الأسلحة التقليدية..

ويتلقى جاجارين دعوات من دول العالم لتكريمه.. ولكى يحكى تجربته المثيرة.. ثم يعمل بعد ذلك نائبا فى المجلس السوفيتى الأعلى.. وعاد مجددا إلى (سيتى ستار) ليساعد على تصميم مركبة فضاء قابلة للاستخدام لأكثر من مرة..

وفى عام ١٩٦٧ فشلت كبسولة الفضاء (سويوز) وعلى متنها الرائد السوفيتى (فلاديمير كوماروف) فى دخول الغلاف الجوى..

ومن سخرية القدر أن يموت جاجارين فى حادث طائرة تدريب سقطت وهو يقوم باختبارها..

كان ذلك الحادث بعد ١٩ يوما من احتفاله بعيد ميلاده الرابع والثلاثين.. وكان ذلك فى ٢٧ مارس عام ١٩٦٨ بالقرب من (كيرزانس).

مات جاجارين فتى يملك كل طاقات الشباب.. ليدفن فى مقبرة الأبطال بجدار الكرملين فى الميدان الأحمر..

لقد كان جاجارين رمز البطل الذى اخترق غموض الأفق وكتب أول سطر فى غزو الفضاء..



الفهـرس

الصفحة

الصفحة

يصدر قريبا

القراءة مع طفلك
يعقوب الشارونى

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهًا.

- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٨٠ دولارًا أمريكيًا.

- الدول الأجنبية ٩٠ دولارًا أمريكيًا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدمًا نقدًا أو بشيكات.

بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة

رقم الإيداع	٣٩٧٩ / ٢٠١٢
الترقيم الدولي	ISBN 978 - 977 - 02 - 7612 - 8

٢٩ / ٢٠١١ / ١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)